تراتيل

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقــــدمة

حيث نتسامح بترفع مع من أساؤوا إلينا وحين نسمو بأخلاقنا على الصغائر كأشجار النخيل الباسقة التي تواجه الحجر والثمر ، فإننا نحتسب ذلك عند الله وإذا كنا قد تعلمنا في المدرسة المحمدية سمو الأخلاق ورفعتها في مواجهة افتراءات الحاقدين الذين يسيئهم ويزعجهم أن ندافع عن أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، وليفهموا ويفهم كل ذي بصيرة أن محاولات الإساءة عبر إرسال المطبوعات والشهادات المزيفة والتهديدات عبر الإنترنت والسب باقدح الألفاظ ، عليهم أن يفهموا أن ذلك لن ينال من عزيمتنا والمضي قدماً ومخاطبة العقل الغربي الذي نحترمه ونقدره لعرض نهج الاسلام العظيم ، مؤمنين بأن جسور التواصل هي الوسيلة الناجعة لجسر الهوة ..

في الوقت الذي بدأت فيه كتابي الجديد لم أكن قد تخيرت له عنواناً ، ولكن كالعادة كانت الفكرة قد نضجت أو قل إنها ذات الفكرة التي أتناولها منذ زمن وانتقلت بها عبر ما يسمونه التطور الذاتي الطبيعي ، لمن تستهويه الكتابة أو من يمارس أي عمل

إبـداعي ، إلى قناعتـه الراسـخة وهواجـسه الدائمـة حـول المـصير البـشري ، ولا أدري لمـاذا يملـؤني الخـوف مـن المجهـول القـادم علـى مستقبل هذا العالم الذي نقبع نحن هنا في قلبه ، وفي بوتقة صـراعات ربما كان الأمر منطلقا من هـواجس الخـوف الـذاتي الإنساني ، وربـما كانـت مـشاعر رومانـسية أحملـها أمـلا لرؤيـة عـالم يظللـه الـسلام ويملؤه الرضا والتسامح ، أتساءل دائما بيني وبـين نفـسي في لحظـات تأمل أسرع خلالها بعمق في فـضاءات نفـسي ومتاهـات عقلـي ، لمـاذا كل هذا الألم الذي يجتاح مفاصل الإنسانية ، ولماذا كل هـذه الـوحشية والـسادية والبـشاعة وانعـدام الحـس الإنـساني ، مـا المـبرر لكـل تلـك القسوة وفي النهايـة اصـطدم دائـما بحـائط الحقيقـة الـذي ترسـم عليـه صـورة تفاصـيل الـصراع الأزلـي بـين الخـير والـشر ، بـين الحـب والكراهية ، بين المشاعر الإنسانية السامية وبين الوحـشية والقـسوة ، بـين صـور القـبح المروعـة الكريهـة وبـين قـيم الجمـال الـساحر الـذي يخطف الأنفاس سحراً وإبهاراً.

البـشرية الـتي ابتعـدت عـن طريـق الـصواب وهـو بـالقطع طريـق الهدايـة الـسماوية ، ومـا جـاء بـه أنبيـاء الله ، أخطـأت واتـضحت جسامة الخطأ في نتائج كارثية تـصدم أبـصارنا واسماعنـا علـى مـدار الــساعة ، ومــن العجيـب والغريـــب أن المفكريــن والمتـــأملين

والنخب العاقلة الحكيمة في العالم كله ودون استثناء ،أجمعت تقريبا على كمال ونزاهة رسالة محمد صلوات الله عليه وسلامه، بل واختاره خصومة على رأس وقمة هرم يضم أفضل مائة شخصية عرفها العالم خلال التاريخ الإنساني، ولم يأت هذا الاختيار بالطبع من فراغ ولكن من خلال تمحيص وقراءة ودراسة وبحث في شخصيته وانسانيته وسيرته من ناحية، وما جاء به من منهاج حياة وعقيدة ودين. إنهم هم من بحثوا وتقصوا ومحصوا ودرسوا وفهموا واقتنعوا ومن ثم اتخذوا قرارهم واجمعوا أمرهم على أن محمدا صلوات الله عليه وسلامه هو أفضل إنسان أنجبته البشرية عبر تاريخها لكن من العجيب رغم ما هو معروف عن أن الغرب سيد العقل على كل ما عداه ،لا يريد العقل الغربي أن يتجاوب مع معطيات عقلية وضع معاييرها ولا أن يحترم هذه المعطيات رغم أن نخبا غربية معتبرة تعرضت إلى شخصية النبي محمد صلوات الله عليه، بالفحص والتشريح والغوص العلمي التاريخي في تفاصيلها وسيرتها وسماتها وتوصلت يقينا إلى أن محمدا كان شخصية متفردة ونادرة في أخلاقها وصفاتها وكمالها واستحق بذلك أن يكون على رأس القائمة التي ضمت أعظم شخصيات عرفها التاريخ الإنساني، لكن الغرب الذي استعبدته المادة وتمكنت

من مفاصل حياته وفكره وخوت روحه ، تاركة فضائها للمال والشهوات والرغبات ، يشعر بالفزع إذا ما شعر أن الدين ومنهجه الروحي القيمي التشريعي العظيم يمكن ان ينتقص من شهواته ورغباته لحساب القيم العليا ومنهج الرحمة والعدل الذي يشمل البشرية على اختلاف أنواعها ومشاربها وهو فزع لا مبرر له خاصة إذا كان الإنسان الغربي رغم مناهج الحياة المادية والحرية التي أسس لها ونادى بها ، يشعر أنه استبدل عبودية الله بعبودية المادة ومناهج الحياة وما يسمى بالحرية رغم أن الإسلام لم يحرم الإنسان ابدأ من مناهج الحياة ومادياتها كما أنه لم يعتبر حرية الإنسان وكرامته امرا مقدسا واصيلا وفي المقابل تشير النتائج الملموسة والمرئية والواقعية التي يعيشها الإنسان إلى شقاء متصل الحلقات لا تنقطع حلقاته ولو لبرهة ليلتقط خلالها أنفاسه وما من مهرب إلا مواصلة الهروب إلى الأمام والولوغ أكثر فأكثر ، في هاوية الشقاء ودرك التعاسة ، وأتأمل أكثر وأعمق فاستغرب أيما استغراب..

كيف لهذا الإنسان الذي تمتع بالعقل والفهم ووصل في عصرنا الحالي ونحن تجاوزنا العقد الأول من القرن الحادي والعشرين إلى ما وصل إليه من تطور وتقدم واتساع معرفي وآفاق رحبة للفكر أن يظل على انحطاطه وتلذذه بالشقاء ورضاه بالعذاب المتواصل وضياع

إنسانيته وقيمه الروحية مقابل أوهام المادة وسرابها اللعين. إنها بالفعل تفرض علامة استفهام ضخمة حول ما إذا كان هذا العالم أسيرا لقوى شريرة تهيمن عليه وتفرض عليه هذا الشقاء والعذاب المتواصل الذي حول حياته إلى هجير مؤلم.

ربما أزعم بأنني افهم الأمر وربما كثيرون غيري يفهمون الأمر على وجهه الصحيح لكنها قوانين هذه الدنيا وقاموسها في الصراع بين الحق والباطل.

سلام على من صدح بالحق واقلع عن الباطل وسلام على من اهتدى "ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه".

صدق الله العظيم

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

الفصل الاول

لم يكن جورج أورويل حين كتب رائعته تحت عنوان "١٩٨٤" بعيدا عن الأحداث بل ربما كان يعرف شيئا من خلال رؤيته لتطور العالم رغم أنه كتبها في ثلاثينيات القرن الماضي والتي تنبأ فيها بما يحدث الآن وبالنمط السائد في هذا العالم لكن لا أظن أن هناك من يزعم أن نيكوس كازانتزاكيس ذلك القسيس والأديب اليوناني الرائع ،كان يعلم شيئا حين كتب خالدته الأدبية "المسيح يصلب من جديد" لينقلنا كالساحر إلى غير الزمان والمكان في هضاب كريت وعلى شواطئها ومراعيها وسهولها، وينبش في عقولنا برفق ويهمس في أروحنا طالبا منا التأمل والبكاء واستلهام القيم الإنسانية لكن ذلك الفيلسوف الألماني كان كاذبا وقاسيا بكل تأكيد وهو يزعم أن الأديان قد ابتدعها الضعفاء لخداع الأقوياء وقد أدى فكره اللاانساني القائم على العنصرية الشيطانية إلى مآس مروعة عصفت بالبشر وتركت ندوباً غائرة في مشاعر الإنسانية حتى وقتنا هذا ، حتى أن هذا الفكر الشيطاني أضحت أثاره في الهولوكوست خالدة باقية وشاهدة على قسوته وكذبه وشره، ولم تتمكن البشرية بتراثها الفكري الإنساني وخلاصة ما أنتجه من فكر من منح الإنسان

سعادته أو حتى الحفاظ على دفئه الإنساني وراحته وسعادته النفسية بل كان العالم بابتعاده عن المناهج السماوية يضيع شيئا فشيئا في مجاهل الشقاء والانحطاط والعذاب الروحي ، الأمر الذي جعله يحاول الالتفاف على طبيعة الإنسانية من خلال محاولات يائسة لإنتاج شعارات وأنظمة تحقق من سعير حياته الذي يلهبه بناره صباح مساء ومن ثم حاول أن يسلخ نفسه من مشاعره الإنسانية نهائيا حتى يذهب الم ضميره وشعوره بجلد الذات فلم يفلح في كلا الأمرين الإفلات من إنسانيته أو العودة إليها ... لقد سقط في ورطة هائلة لا نخرج منها إلا بثمن لابد من دفعة خصما من مناهجه الدنيوية ومن عبوديته للمادة التي ولغ في عبادتها وهذا هو توماس والكر أرنولد Thomas walker Arrold ١٨٦٤ - ١٩٣٠ المستشرق الانجليزي والعالم بجامعة كمبريدج العريقة الذي كتب أشهر كتبه عن الإسلام بعد أن أمضى عشر سنوات من عمره أستاذا في جامعات بالهند وجامعة لاهور وهو كتاب (الدعوة إلى الإسلام) هذا المستشرق المرموق عاد إلى لندن ليعمل أمينا مساعدا لمكتب إدارة الحكومة الهندية التابع للخارجية البريطانية وفي نفس الوقت عمل كأستاذ غير متفرغ في جامعة لندن وكان عضوا بهيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت في ليدن بهولندا في

طبعتها الأولى وعمل أيضا أستاذا زائرا في الجامعة المصرية عام ١٩٣٠ ويذكر أنه كان معلما للمفكر الإسلامي الهندي محمد إقبال، يقول ويؤكد أن الإسلام بسماحته وعدله وقيم الحرية والكرامة الإنسانية فيه، انتشر بالدعوة ولم ينتشر كما يقولون بحد السيف وتعرض في كتابه إلى انتشار الإسلام في أصقاع العالم بالدعوة المحضة وما عكسه تشريعه من عدالة وسماحة وإنصاف ومساواة.

ومن هذه الشهادات، شهادة الأمير المستشرق الإيطالي (ليون كاتياني) (١٨٥٩ – ١٩٢٦) الذي حقق ونشر وألف (تاريخ الإسلام) في عشرة مجلدات و(دراسات في تاريخ الشرق) في ثلاثة مجلدات والذي شهد على سماحة الإسلام وانتشاره السلمي فقال:

لم يضطهد العرب أحدا في السنوات الأول من أجل الدين كما أنهم لم يعملوا على ضم أحدا إلى دينهم ومن ثم تمتع المسيحيون في ظل الإسلام بعد الفتوحات الأولى بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة.

وقد قيل عن الخليفة عمر بن الخطاب (٤ هجرية – ٢٣ هجرية) أنه أمر أن يعطى قوم مجذومون من النصارى الصدقات وأن يجرى عليهم القوت ولم وينس المجذوبين حتى في آخر وصاياه إذ عهد فيها إلى من يخلفه ما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي فقال "أوصيه

بذمة الله وذمة رسوله أن يوفى لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم" كـان ذلـك مـا أورده تومـاس ارنولـد في مقدمتـه لكـن أود هنـا أن أخاطب العقل الغربي الذي أقدره كثيرا بما يناسب هـذا العقـل الـذي طرح مسألة الدين جانبا باعتبارها مسألة غيبية وانطلق يقيس الأمـور بالعقـل وكافـة منـاحي الحيـاة وجعـل مـن الإنـسان سيد الكـون كـما جعله محوره ودائرة اهتمامه وأغفل تماما خالق الكون وسيده في افترء عقلي كبير وظالم حتى أنه بهذه الفكرة جسد ألوهية المسيح باعتبـاره الإنسان الإله ولم يحاول حتـى أن ينـصت إلى صـوت في زوايـا عقلـه يراجعه فيما يعتقد نقدا وتساؤلا عن كيفية الإنسان الإله هذا القاصر عـن إدراك مـا حولـه وخـصائص البـشرية الـتي تجعلـه يتـألم وييـأس ويموت – هذا الإنسان بعجزه الكبير وضعفه الـشديد الـذي لا يمكـن سوى أن يكون مخلوقـا ولـه خـالق صـنعه الحـق بوظيفـة في الـدنيا مـن أجل العبادة وإعمار الكون.

وهنـا يبـدأ التـصادم بـين العقـل الغربـي والـدين فكـما أسـلفنا ، جعلت الحضارة الغربية والفكر الغربي الإنسان إلهـا ومحـورا للكـون وسيدا يدور الكـون كلـه مـن أجلـه ومـن أجـل تلبيـة رغباتـه الحـسية وشـهواته ومتطلباتـه أمـا الإسـلام أو الـدين الـسماوي فقـد علمنـا الإيمـان بالخـالق ومنحنـا القـدرة علـى التأمـل واستنباط هـذه القـدرة

الإلهية العظيمة وأيمانا بأننا أي البشر المخلوقون عبيد هذا الخالق العظيم الذي خلق الكون وسيره بناموسه العظيم وسننه الدقيقة التي يعجز الإنسان بل تعجز الإنسانية وغير الإنسانية أن تأتي بإحدى سنن هذا الخالق العظيم بل ويصطدم دائما هذا الإنسان صاحب هذا العقل بعجز مهين امام اعصار أو زلزال حتى أثبت احترامنا للعقل الذي نحاوره ليفهم أن الاعتداء على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ما هو إلا محاولة من جهات غربية يمينية ملحدة تحاول خداع العقل الغربي نفسه بتشويه صوره نبي الإسلام في عقولهم حتى يتحول الأمر إلى جدار للصد المبتدئ ورفض أي محاولة للفهم عن طريق العقل. إنها محاولات لإهانه العقل الغربي وليس لإهانه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ،لأن محاولة حجب الحقيقة عن العقل وبطرق رخيصة هي أهانة صارخة للعقل واغتصاب ومصادرة مسبقة لمحاولة أعمال العقل وللأسف فإن الجهات الشيطانية العنصرية الملحدة لا تتورع عن فعل ذلك واستغلال الإعلام ووسائله المختلفة لذلك.

وقد رأينا مثلا ذلك اليميني الهولندي والسياسي المتطرف الذي يقود حملة تشويه وكراهية ضد الإسلام في محاولة لإغلاق الطريق على العقل الغربي للفهم الصحيح وذلك الرسام الكاريكاتيري

الدنمركي الذي أساء اشد الإساءات المرفوضة واللاأخلاقية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك النبي الكريم الذي بعثه الله للعالمين برسالة التوحيد ليخرج الناس من عبادة المادة والشهوات والعباد إلى عبادة الله رب الناس ورب هذا الكون الواحد الأحد وغير ذلك كثير.

وهنا سأبعث للغرب المتحضر الذي يحترم العقل بدراسات قام بها مفكرون وبحاثة غربيون ومرموقون وغير مسلمين كالبروفيسور توماس أرنولد الانجليزي الذي تولى مناصب عليا وسياسية مرموقة في حكومته ودولته.

يقول توماس أرنولد في تعريف دين الرسالة.

تعريف دين الرسالة: منذ أن ألقى الأستاذ مَكس ملّر Max Mûller محاضرة في كنيسة وستمنستر في لندن، في يوم الشفاعة من أجل الرسل، وذلك في ديسمبر ١٨٧٣، أصبح من المعروف علميًا أن الأديان الستة الكبرى في العالم يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين غير مختص. فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير، أما البوذية والمسيحية والإسلام فهي من القسم الأول. وقد وفق في تحديد ما ينبغي أن يدل عليه اصطلاح "دين الرسالة" بقوله إنه الدين "الذي يسمو فيه نشر الحق، وهداية الكفار

إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده... إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية، ويعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما يعتقدون أنه الحق".

الإسلام دين رسالة: وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا بين ما نسميه أديان الرسالة، لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها. وإن انتشار مائتي مليون من المسلمين في العالم، في الوقت الحاضر، لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التي تلت ظهور الإسلام.

انتشار الإسلام: وكان ظهور مبادئ هذه العقيدة لأهالي بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، على يد النبي العربي الذي انضوى تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة. أمدت جنودهم بقوة لا تقهر تدفقوا في أنحاء ثلاثة، يفتحون البلاد ويخضعون العباد. وكان أسبق البلاد إلى التسليم سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقية وفارس. وبعد انقضاء مائة عام على وفاة

الرسول، وصل أتباعه غربًا إلى أسبانيا، وشرقًا إلى أن عبروا نهر السند، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما في أوج قوتها.

ومع أن هذه الإمبراطورية العظمى قد تصدعت أركانها فيما بعد، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع. وعندما خرَّبت جموع المغول بغداد (١٢٥٨م) وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية الذاوي، وطرد فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة (١٢٣٦م) ودفعت غرناطة، آخر معاقل الإسلام في أسبانيا الجزية للملك المسيحي –كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدمًا ناجحًا في الجزائر. وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام، نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة. فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان، وطئ فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر؛ وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين. وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلوًا كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني، عقيدتهم إلى إفريقية الوسطى

والصين وجزر الهند الشرقية. وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة.

وفي خارج البلاد الإسلامية الصميمة، والمناطق التي تضم عددًا كبيرًا من السكان المسلمين، كالصين وروسيا، طوائف صغيرة قليلة العدد من أتباع النبي، يؤيدون الدين الإسلامي بين صفوف قوم من الكفار، من أمثال هؤلاء طائفة من المسلمين الذين يتكلمون البولندية، وينحدرون من أصل تتري في لتوانيا، ويقطنون مقاطعة كڤنو Kovno وڤلنو Vilno وجردنو Grodno، وطائفة أخرى من المسلمين الهولنديين في مستعمرة الكاب، وثالثة من الرعاة الهنود نقلوا معهم عقيدة الإسلام إلى الهند الغربية وإلى غينا البريطانية والهولندية. ثم أصبح للإسلام أيضًا في السنين الأخيرة أشياع في إنجلترا، وأمريكا الشمالية واستراليا واليابان.

ويرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض، إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية؛ على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين، اوقفوا حياتهم

على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة.

القرآن يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن الإكراه: ولم تجئ مهمة تبليغ الرسالة في تاريخ الإسلام بعد تريث وتفكير، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية. وقد نرى ذلك واضحًا في هذه الآيات القرآنية، التي ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها:

(ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (سورة النحل: آية ١٢٥).

(وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ (أي اليهود والنصارى) لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة الشورى: الآيات ١٣- ١٤).

وفي الآيات المدنية أيضًا نجد مثل هذه التعاليم، وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير وفي ذروة سلطانه.

(وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (سورة آل عمران: الآية ٢٠)

﴿ كَذَلكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْر وَيَأْمُرُونَ بالْمَعْرُوف وَيَنْهَوْنَ عَن الْمُنكَر وَأُوْلَئكَ هُمُ الْمُفْلحُونَ﴾ (سورة آل عمران: الآيات ١٠٣- ١٠٤).

﴿لكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا منسَكًا هُمْ نَاسكُوهُ فَلَا يُنَازعُنَّكَ في الْأَمْر وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُل اللَّهُ أَعْلَمُ بمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الحج: الآيات ٦٧- ٦٨).

وهذه آيات ننقلها من سورة قيل إنها كانت آخر ما نزل من السور: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّه ثُمَّ أَبْلغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة: آية ٦).

أما الكفار الذين نكثوا عهدهم ﴿اشْتَرَوْاْ بآيَات اللّه ثَمَنًا قَليلاً فَصَدُّواْ عَن سَبيله﴾ و ﴿لاَ يَرْقُبُونَ في مُؤْمنٍ إلاًّ وَلاَ ذمَّةً﴾ و﴿فَإن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإخْوَانُكُمْ في الدِّين وَنُفَصِّلُ الآيَات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة التوبة: آية ٩، ١٠، ١١).

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة، من الناحية النظرية، أو الناحية التطبيقية. وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا في إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار. على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة

المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى، وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة، التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لم يلجأوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرًا مستحيلاً، يتنافى مع الأساليب السياسية، فلقد جاء القرآن مشددًا في الحض على هذه الطرق السلمية، في غير آية منه، مثال ذلك:

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَة وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴾ (سورة المزمل: آية ١٠- ١١).

﴿إلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللَّه وَرِسَالَاته﴾ (سورة البقرة: آية ٢٣).

﴿قُل لِّلَّذينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّه لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الجاثية: آية ١٣).

﴿وَقَالَ الَّذينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا من دُونه من شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا من دُونه من شَيْءٍ كَذَلكَ فَعَلَ الَّذينَ من قَبْلهمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُل إلاَّ الْبَلاغُ الْمُبينُ﴾ (سورة النحل: آية ٣٥).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة النحل : آية ٨٢)
﴿وَلَا تُجَادلُوا أَهْلَ الْكتَاب إلَّا بالَّتي هيَ أَحْسَنُ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذي أُنزلَ إلَيْنَا وَأُنزلَ إلَيْكُمْ وَإلَهُنَا وَإلَهُكُمْ وَاحدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلمُونَ﴾ (سورة العنكبوت : آية ٤٦).
﴿فَإنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهمْ حَفيظًا إنْ عَلَيْكَ إلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ (سورة الشورى : آية ٤٨).
﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن في الأَرْض كُلُّهُمْ جَميعًا أَفَأَنتَ تُكْرهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمنينَ﴾ (سورة يونس : آية ٩٩).
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً لّلنَّاس بَشيرًا وَنَذيرًا ﴾ (سورة سبأ : آية ٢٨).

ولم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية ، وإنما وردت أيضًا بكثرة في الآيات المدنية كقوله تعالى :

﴿لاَ إكْرَاهَ في الدّين﴾ (سورة البقرة : آية ٢٥٦).
﴿وَأَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ فَإن تَوَلَّيْتُمْ فَإنَّمَا عَلَى رَسُولنَا الْبَلَاغُ الْمُبينُ﴾ (سورة التغابن آية ١٢).
﴿قُلْ أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ فَإن تَوَلَّوا فَإنَّمَا عَلَيْه مَا حُمّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمّلْتُمْ وَإن تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُول إلَّا الْبَلَاغُ الْمُبينُ ﴾ (سورة النور : آية ٥٤).
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذيرٌ مُّبينٌ﴾ (سورة الحج : آية ٤٩).

﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة المائدة: آية ١٣).

وإن الغرض مما سنذكر في الصفحات التالية، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى في التاريخ، وكيف كان أئمة الإسلام يطبقون مبادئ نشاط الدعوة. وينبغي أن يعلم القارئ منذ البداية، أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم. فليس الغرض تاريخ الحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي، مما نجده منها مفرقًا في صفحات التاريخ الإسلامي.

وقد عني الكتاب الأوروبيون ببيان هذه الحالات، حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها. وإن من الصعب إدراجها في نطاق تاريخ الدعوات. وفي بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال، الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر Liudger والقديس ويليهاد Willehad بين السكسونيين الوثنيين، أكثر مما يصغي إلى أخبار التعميدات المسيحية، التي كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف. وكان المبشرون في بلاد الدانمرك، وهم القديس أنسجار Ansgar وخلفاؤه، أحق بصفة التبشير من الملك كنوت Cnut

الذي استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب. وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد Gottfried ، والأسقف كريستان Christian من نجاح في تنصير البروسيين الوثنيين، وكان نجاحهما أقل ، حيث كانوا بحق أكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف Bretheren of the Sword وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار. ولقد فرض فرسان Ordo Fratrum Miltitae Christ المسيحية على شعب ليفونياً فرضًا.

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية في هذه البلاد، هم رهبان ماينهارد وتيودوريك Meinhard and Theodoric، وهم في ذلك أشد أثرًا وأعظم شأنًا من أولئك الفرسان المجاهدين، الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية. وإن الوسائل العنيفة التي كان يلجأ إليها أحيانًا الرسل اليسوعيون، لا يمكن أن تنقض الشرف الذي يتصف به أمثال القديس فرانسيس كسافير Francis Xavier وسائر المبشرين من هذه الطائفة. كذلك لم يكن فالنتين Valentyn بأقل من رسل أمبويا Amboyna في هذه السبيل؛ فقد وجه في سنة ١٦٩٩م إلى راجوات Rajas هذه

الجزيرة مرسومًا يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم، إذا ما طاف بهم راعى الكنسية.

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية، فإننا نجد نشاط الدعوة في اطراد مستمر. وقد يلي عصر الحماسة التي أظهرها الرسل في نشر الدين، فترة جمود وعدم اكتراث، وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى "كلمة الله". كذلك كانت الدعاية الإسلامية في شتى عهود التاريخ الإسلامي بين مد وجزر. ولكن لما كانت الغيرة التي عرفها هؤلاء العاملون على نشر الدين، ظاهرة جلية في بث كل من الديانتين، رأينا من المناسب أن نفرد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة، بحيث لا ينأى بنا ذلك الاتجاه، عن ذكر غير ذلك من المعلومات التي تتعلق بالحياة الدينية، على أن نحصر عنايتنا في دراسة مظهر من مظاهره، تكون له مميزاته الخاصة. وعلى ذلك ففي مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الدعوة، منفصلة عن أخبار الاضطهاد، في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ العقيدة الإسلامية، ولو أنه قد يكون هناك ما يبرر الخلط بين هاتين الديانتين أحيانًا. فكما أن الدين المسيحي لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التي اتخذها فيكن Viken (القسم الجنوبي من النرويج) والملك أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson

، الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين في فيكن بأسرها– وكما أن وصية القديس لويس لم تتخذ أصلاً لمهمة التبشير المسيحي، تلك الوصية التي تقول: "عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسيحية قد أسئ إلى سمعتها، فإنه ينبغي ألا يذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذي يجب عليه أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء"، فكذلك ظهر دعاة مسلمون، لم يكن شعارهم في وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التي تفوه بها مروان آخر خلفاء بني أمية بقوله: "كل من لا يدخل في ديني، ويصلي صلاتي، ويتبع رأيي من أهل مصر، قتلته وصلبته". كذلك لا يعد المتوكل والحاكم وتيبو سلطان رسلاً مثاليين في الإسلام، بقدر ما يعد مولانا إبراهيم رسول جاوه وخواجة معين الدين خشتى في الهند...

ومع أنه قد يمكن الوقوف على ما هنالك من فرق واضح بين أساليب التحول إلى الدين بتأثير الاضطهاد، وبين الدعاية السلمية بطريق الإقناع، فإنه ليس من اليسير أن تتحقق البواعث التي حملت الداخلين في الدين على تغيير عقيدتهم، أو الوقوف على حقيقة أن الدعوة منبعثة حقًا عن محبة للنفوس، وعن ذلك المثل

الأعلى الذي بيناه في الفقرة الأولى من هذا الباب. وكان هنالك في كل حين، في المسيحية والإسلام على السواء، نفوس جادة حازمة، تتخذ من دينها الحقيقة السامية لحياتها. وإن تلك اللذة التي تشبعوا بها في المسائل المتعلقة بالروح قد وجدت تفسيرها في تلك الحماسة الدائبة على تبليغ الحقائق الأثيرة لديهم، المحببة إليهم، وعلى التمسك بالأصول والقواعد، التي وجدوا فيها الكمال، والتي تكوّن القوة الدافعة في حركات الدعوة. وكان هنالك أيضًا أولئك الخارجون عن حظيرة الإسلام الذين استجابوا لدعواتهم، واعتنقوا الدين الجديد بمثل تلك الحماسة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام، كالمسيحية، قد عد من بين أشياعه.. كثيرين من الناس، لم تكن التعاليم الإسلامية في نظرهم إلا مظاهر لنظام سياسي، أو صورًا من التنظيم الاجتماعي، قبلوها إما على أنها ضرورات مبغضة إلى نفوسهم، أو حلول ملائمة للمشاكل العارضة، التي لا يهمهم أن يجعلوها موضع تفكير لأنفسهم، نجد أمثال هؤلاء بين الذين دخلوا في كل من هاتين الديانتين؛ ونجد كلا من المسيحية والإسلام قد أضاف إلى أشياعه عددًا من الأتباع، مدفوعين إلى قبول الدين، متأثرين بمطالب وأحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية، لا علاقة لها بمثل ذلك الظمأ الروحي الذي

يدفع الداعي المخلص لدعوته. زد على ذلك أن الأخبار التاريخية التي طالما تتحدث عن أعمال الدعوة قد سجلت دخول الناس في الدين من غير أن تحاول تحليل البواعث التي حملتهم على تغيير دينهم، ولا سيما أن هناك نقصًا واضحًا في المادة التي تتعلق بتاريخ الدعوة إلى الإسلام، إذ أن الكتب الإسلامية قد انفردت بنقص في تدوين حالات معتنقي الإسلام الذين يحتل أمثالهم في المسيحية مكانًا كذلك المكان الفسيح في كتب الكنيسة. وليس من المستطاع فيما نذكره من وصف إجمالي لنشاط الدعوة الإسلامية، أن نتبين دائماً هل كانت تلك الدوافع التي دفعت إلى ذلك التحول سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو أنها كانت دينية محضة. وسنشير من حين إلى حين إلى ما كان لكل من هذه البواعث من أثر في هذه السبيل.

إن البروفيسور أرنولد بعد أن تعرض لدين الرسالة وفسره واستعرض بحثه فيه بشكل منهجي، ينتقل بنا إلى دراسة حياة النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه باعتباره داعية للإسلام ولرسالة التوحيد، وركز البروفيسور توماس أرنولد على جانب واحد من حياة محمد صلى الله عليه وسلم، على اعتبار أن هناك الكم الوافر من الأبحاث التي ركزت على باقي الجوانب الإنسانية والأخلاقية

والاجتماعية للرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الجانب الذي ركز عليه بروفيسور توماس هو دراسة حياة محمد النبي والداعية والرسول إلى الناس بالإسلام كدين جديد يدعو إلى التوحيد وتطهير نفوس وقلوب البشر من رجس الشرك.

يقول توماس ارنولد تحت عنوان "دراسة حياة محمد باعتباره داعية إلى الإسلام":

محمد نموذج الداعي المسلم: ليس من غرضنا في هذا الباب أن نضيف شيئاً جديداً إلى ما ورد في كتب السير المتعددة عن حياة محمد، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحدة، وهي التي يظهر لنا فيها النبي داعية ورسولاً إلى الناس بدين جديد. ولعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين، فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجئ في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكير، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها، وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث

ذلك، وكيف كان النبي محمد يعد نموذجًا للداعي إلى الإسلام. ومن ثم لن يدخل في نطاق هذا البحث وصف أيامه الأولى، ولا المؤثرات التي خضع لها منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة، فلا نتحدث عنه سياسيًا ولا قائدًا، وإنما الذي يعنينا أن نتعرض لحياته داعيًا إلى الإسلام فحسب.

جهوده الأولى في نشر الدعوة: ولما اقتنع محمد آخر الأمر، بعد قلق ونزاع نفسي طويل، بأنه مكلف بحمل رسالة دينية من قبل الله، وجَّه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد. فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها، وحدانية الخالق، ونبذ عبادة الأصنام، والتسليم لإرادة الله. وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به — وكانت قد طلبته لنفسها فبل مبعثه بخمسة عشر عامًا، حين كان ذلك الشاب الفقير الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيرًا موفقًا في عمله— وقالت له: "يا بن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك. ، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك". وقد نشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسبه. بيد أن هذا لم يكن شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى مشاركتها إياه في حالات قلقه النفسي في

إخلاص وولاء، وشد أزره ومعاونته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع في ساعة اليأس.

أوائل المسلمين: وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩م (بعد أن قضت في حياة الزوجية خمسة وعشرين عامًا)، تظهر على الدوام استعدادها لأن تواليه بعطفها، وتخفف عنه، وتغمره بتشجيعها، كلما قاسى من اضطهاد خصومه وأعدائه، أو عذبته الشكوك والهواجس. قال صاحب السيرة: "وكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه وكانت تخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس".

وممن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة محمد، زيد بن حارثة وعلي بن أبى طالب، وكان الرسول قد تبناهما، والصديق أبو بكر، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلاً: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما تردد فيه" وكان أبو بكر تاجرًا موسرًا مبجلاً في قومه، لكمال خُلقه ورجاحة عقله وكفايته، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالي من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين محمد. وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين، وهم: سعد بن أبي وقاص، الذي

تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته، وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب، فقد أخذه عمه فأوثقه وقال: "أترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد؟ والله لا أحللك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين". فقال عثمان: "والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه"، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه.

وبفضل هؤلاء وجماعة أخرى من الموالي والفقراء بوجه خاص، أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنوات الثلاث الأولى من البعثة. وكان لنجاح محمد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرًا من الأساليب الأولى، فبدأ يجهر بدعوته، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله: "والله ما أعلم شابًّا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟" فأحجم القوم عنه جميعًا إلا عليّاً فقد صاح في حماسة الصبي: "أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه". فقام القوم يضحكون.

ولم يثن النبي إخفاقه في هذه المناسبة بل مضى في دعوة قومه في مناسبات أخرى، ولكن إنذاره لم يلق إلا سخرية وازدراء.

اضطهاد الداخلين في الإسلام: وقد حاول الكفار مرارًا إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذين ينتسب إليهم محمد، ليمنعه ويكفه عن سب آلهة آبائهم، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفاً. وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه، فرد عليه النبي: يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته. فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له: "اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً".

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطاً وكراهية يوماً بعد يوم، فلجأوا إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد، وعرضوا عليه كثيراً من شرف الدنيا وجاهها، لعله يعدل عما عقد العزم عليه. وقد قيل إن ما لقيه محمد من سوء المعاملة كان سبباً في أن يجتذب إلى جانبه شخصاً عظيماً دخل في الإسلام، ذلك هو عمه حمزة. فإنه عندما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابراً، تملكت عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية، فأحالته من عدو عنيد إلى

متعصب غيور على الإسلام. ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التنكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد. ولا شك أن كثيراً من الناس كانوا قد دخلوا سراً في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى حين يوم انتصار الدين.

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتداداً مرّاً، حين رأوا كثرة عدد المشايعين للإسلام، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان محمد نفسه في حماية أبي طالب وبني هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قريبهم في الناس، إلا أن قوة العصبية للقبيلة التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضاً لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسُجنوا، وعُذبوا، كي يرتدوا عن هذا الدين الجديد. في ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالاً وأعتقه، وهو عبد حبشي كان يصفه محمد بأنه "أول ثمار الحبشة". وكان يقاسي أشد العذاب، فيعرض لأشعة الشمس المحرقة يوماً بعد يوم، فيطرح على

ظهره ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره ثم يقال له : لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، أو تعبد اللات والعزى ، فيقول بلال : "أَحد أَحد". ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب. وضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة ، على حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى. فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها – وكان العمل ينطوي على أشد مظاهر الجرأة التي لم يجسر عليها أحد من أتباع محمد من قبل– فتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديتهم وجعلوا يضربونه في وجهه ، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتاً مَّا قبل أن يضطروه إلى السكوت. ورجع إلى رفاقه ، وقد أظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين ، "حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون".

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من أجله اتخذ محمد مقره في السنة الرابعة من البعثة في دار الأرقم ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل فيها نشر مبادئ الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة

التي قضاها محمد في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة، حتى إن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

ولما لم يستطع محمد أن يدفع الأذى عن أتباعه أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة. وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٥م) عبر إليها أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حيث لقيهم النجاشي، وكان يدين بالمسيحية، بالعطف والقبول. وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التي تلفت النظر، لأنها قصة الرجل الذي لم يكن من بد أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة، وهي كراهة الذين أحبهم وأحبوه من قبل. وقد هدى مصعبًا إلى الإسلام ما استمع إليه في دار الأرقم من تعاليم للإسلام، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذين كانوا يكنون له حبّاً خالصاً ويناوئون هذا الدين الجديد مناوأة شديدة، فما أن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه فحبسوه ولكن أفلح في الهرب إلى أرض الحبشة.

ويقال أن سخط قريش قد لحق بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة، فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشي إخراجهم من هذه البلاد. ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبى أن يكف عنهم

حمايته، فقد قالوا له رداً على ما وجه إليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به وأتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك". عندئذ قبل النجاشي شكايتهم ورجع رسل قريش مقهورين وفي تلك الأثناء قام المكيون بمحاولة جديدة لإغراء النبي بالمال والجاه حتى يترك دعوته، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعاً في هذا السبيل.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مكة يرقبون بأمل كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة، أسلم رجل كان من أشد أعداء محمد

وأصلبهم مقاومة وتعصباً- رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدهم، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام- ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب. ففي ذات يوم خرج في صورة الغضب متوشحاً سيفه يريد قتل النبي، فلقيه أحد أقاربه وهو في طريقه إلى النبي وسأله أين يريد؟ فقال "أريد محمدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله". فقال له: "أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟" قال: "وأي أهل بيتي؟" قال: "ختنك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه" - فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خبّاب (بن الأرتّ) أحد أتباع محمد، وكان يقرئهما آيات من القرآن. فدخل عمر عليهما فقال: "ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟" قالا: "ما سمعت شيئاً" قال: "بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه". وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها وصاحت في وجهه: "نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك". وكانت فاطمة قد جرحت، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التي سمعهم يقرؤونها آنفاً. وبعد تردد أعطته

إياها، وهي تشمل السورة العشرين من القرآن، فقرأها عمر وقال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!" وإذا بالإيمان يغمره فيصيح: "دلني على محمد حتى آتيه فأسلم".

ويعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام: فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكاً أشد جرأة، فترك محمد دار الأرقم، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة. وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سبباً قوياً في إثارة مخاوف أشراف مكة. ذلك أنهم أصبحوا لا يطيقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين، المحقرين، المضطهدين الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس. إنهم كَوَّنُوا عصبة قوية، يكثر عددهم يوماً بعد يوم بمن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان. ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبي قوي.

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة في مدينتهم، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وهم الذين حموا النبي لما بينه وبينهم من صلة القربى، وتعاهدوا على ألا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم من أنفسهم، ولا يتجروا معهم، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم.

وقد قيل إن بني هاشم أقاموا على ذلك ثلاث سنين محصورين في شعب من شعاب مكة، إلا في الأشهر الحرم حيث حُرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين.

وكان محمد يجعل من موسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق. ولكنه لم يصادف نجاحاً في هذه السبيل، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصيح بأعلى صوته: "إنه لصابئ يريد أن تسلخوا دين آبائكم إلى ما جاء من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له". فيردون عليه ردّاً قبيحاً ويقولون له: إن قومك وذوي قرابتك هم أعرف الناس بك، فلمَ لَمْ يؤمنوا بك ويتبعوك؟ وكان ما ذاقه محمد وذوو قرابته من العذاب والحرمان قد آثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم.

وفي هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة، تلك الزوجة الوفية التي ظلت خمسة وعشرين عاماً تمده بالرأي والتأييد، فاستولى عليه اليأس وحزن عليها حزنًا عميقًا. وبعد ذلك بقليل توفي عمه أبو

طالب، فحُرم بموته من أشد حُماته ثباتاً وقوة وأصبح عرضة لإهانة قريش وأذاها من جديد.

ولما قُوبلت دعوة محمد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات دون أن يصادف فيها نجاحاً يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته، ويجد في بلدهم تربة أشد خصباً وصلاحية يستطيع أن يلقى فيها بذور هذا الدين، فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهي على بعد سبعين ميلاً من مكة، ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه أرسل من قبل الله نبيّاً لينشر هذا الدين، وطلب في الوقت ذاته أن يحموه ممن اضطهدوه في مكة. إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التي لم تتقبلها عقول أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التي أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة في غير رحمة وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد محمد عند عودته من الطائف أن أمله في النجاح قد أصبح أضعف منه في أي وقت مضى، وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي أوردها على لسان نوح: ﴿ قَالَ رَبّ إنّي دَعَوْتُ قَوْمي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إلَّا فرَارًا وَإنّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لتَغْفرَ لَهُمْ

جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (سورة نوح : آية ٥- ٧).

مقدمات الهجرة إلى المدينة : وكان من عادة النبي أن يتردد في موسم الحج على القبائل العربية المختلفة في خيامهم ويحدثهم في الدين. وكان بعضهم يقابل عبارته بشيء من عدم الاكتراث، ويقابلها البعض الأخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فقد التقى بفئة قليلة، ستة نفر أو سبعة. وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى في ذلك الحين. فقال لهم مخاطباً : "من أنتم؟" قالوا : "من الخزرج" قال : "أمن موالي يهود؟" فأجابوا : "نعم"، قال : "أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟"، قالوا : "بلى". وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان. وكان اليهود قد غلبوهم في بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم : "إن نبيّاً الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم". فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله وقال بعضهم لبعض : "تعلمن والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه".

فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له : "إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم غير العداوة والشر ما بينهم ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، وسنقدم عليهم وسندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين". وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمرهم الإيمان.

تلك هي القصة السائرة عن هذا الحادث الذي كان نقطة التحول في بعثة محمد. فقد وجد الآن قوماً كان أسلافهم قد هيأوا عقولهم إلى حد مَّا لتقبل تعاليم النبي ، وكانت أحوالهم إذ ذاك ، كما دلت الحوادث فيما بعد ، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمناً طويلاً ، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على إثر هذه الكارثة القومية التي نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم ، وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين ، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب ؛ وسمح لهم بالإقامة في رقعة من هذه المنطقة. ولما كثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة حكم اليهود يزداد شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم ، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي.

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية، وظل كثير من سادة المدينة الأصليين يقيمون فيها في خدمة هؤلاء الفاتحين؛ حتى إن المدينة كانت في زمن محمد تضم عدداً عظيماً من اليهود. وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوة نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين. فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة؛ وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادي التي تمتعوا بها راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التي احتفظوا بها في حرم الكعبة المقدسة.

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع دائم بسبب الخصومة التي قامت بين الأوس والخزرج. وعاش أهل يثرب في قلق واضطراب. وما من شيء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيراً لهذه المدينة. وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنبيّاً ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظاً للتوازن بين قوة الأحزاب المتنافسة، ومنعاً للصراع الداخلي الذي كان مفسداً للتجارة والشئون العامة، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي

نظرة تنطوي على شيء من الريبة، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسليم زمام هذه السلطة.

بل على العكس من ذلك نرى أن أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية.

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع محمد أن يدخل مكة بعد ثماني سنوات من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه، تلك المدينة التي جاهد فيها من قبل جهادًا قليل الثمرة مدة عشر سنوات.

وكان محمد قد رغب من قبل في أن يصحب الحجاج من الخزرج، الذين تحولوا حديثًا إلى الإسلام على يديه إلى يثرب، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس.

وقالوا: "دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك، وموعدنا موسم الحج في العام المقبل". وهكذا

رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم كثير، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله.

حتى إذا وافى موسم الحج وافاه وفد من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس عند العقبة، وهي المكان السّري المتفق عليه، وتعاهدوا على بيعته. وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى: "على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا؛ ولا نعصيه في معروف". ورجع هؤلاء الاثنا عشر رجلاً إلى يثرب دعاة إلى الإسلام؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشاراً سريعا، من دار إلى دار، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة في تأدية رسالتهم.

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة، وفي رواية أن الرسول أرسله إجابة لكتاب بعثة الأنصار من يثرب. وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام، وقد عاد أخيرًا من الحبشة، ومن هنا كسب خبرة واسعة. وإن التجربة القاسية التي لاقاها في مدرسة الاضطهاد لم تضعف حماسته، بل علمته كيف يقاوم

الاضطهاد، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يغضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا روحه وتعاليمه. واستطاع محمد أن يوليه كل ثقته، ويعهد إليه في هذه المهمة الشاقة، وهى مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثاً في هذا الدين، وتعليمهم، وتعهد بذور الحماسة والعبادة الدينية التي ألقيت من قبل حتى آتت ثمارها، واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاماً له، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحياناً، وأحياناً أخرى في دار بني ظفر، في حي من أحياء المدينة حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل.

وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير شيخي بنى عبد الأشهل في ذلك الحين. وقد حدث ذات يوم أن مصعباً كان يجلس مع أسعد في دار بني ظفر، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم، وقال لأسيد بن حضير: "لا أبالك؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفائنا فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لكفيتك (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد). عندئذ تناول أسيد حربته، وانطلق إلى أسعد ومصعب، ثم صاح بهما: "ما جاء بكما إلينا، أتسفهان ضعفاءنا؟

اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة". فأجاب مصعب في هدوء: "أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته فكف عنه". فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليهما يسمع، ومصعب يشرح له مبادئ الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن. وصاح بعد برهة مأخوذًا: "كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟" فأجاب مصعب: "تغتسل فتطهر ثوبك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، فاستجاب لساعته، وردد شهادة الإسلام ثم قال: "إن ورائي رجلاً (يشير إلى سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن".

عند ذلك انصرف، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه ثائراً غضباً على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه. وعندئذ رضي أن يصغي إلى كلام مصعب. وسرعان ما أثر فيه، وحمل الإقناع إلى قلبه، فدخل في الدين، وأصبح من المسلمين. ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم: "يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟" قالوا: "سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة"، فقال سعد: "فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله". ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل.

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدماً، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعاً من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وما إن وافى موسم الحج التالي حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين. وقد عهد إليهم في دعوة النبي بالمهاجرة إلى يثرب اعتصاماً بها من حنق الخصوم، وقد قدموا ليبايعوا على أنه نبيهم وزعيمهم. وفي هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبي في الموسمين السابقين، وكان يرافقهم شيخهم مصعب، وقد بادر على إثر وصوله بالذهاب إلى النبي، وإخباره بما أصابه من نجاح نشر الإسلام. ويقال إن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت إليه تقول: "يا عاق، أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله. فلما سلم على رسول الله وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله وهو الإسلام الذي رضي به الله لنفسه ولرسوله. قالت:

ما شكرتَ ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب فقال: أفر بديني أن تفتنوني. فأرادت حبسه فقال: لئن حبستني لأحرضن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت تبكي، فقال مصعب: يا أمَّاه إني لك ناصح، عليك شفيق: فأشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، قالت: والثواقب لا أدخل في دينك فيُزرى برأيي، ويضعَّف عقلي: ولكني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني".

وقد دبر اجتماع سري بالعقبة، وهو ذلك المكان الذي لقي فيه النبي أهل يثرب من المسلمين في العام الماضي. وإنما اختار النبي هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها. جاء محمد لا يرافقه إلا عمه العباس الذي كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك. وكان العباس أول من تكلم في الاجتماع، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه في عز من قومه ومنعة في بلده. على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب، فينبغي أن يتدبروا مليّاً قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له، ومنعه ممن يخالفونه، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا لخطر. عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون في عزمهم، وأنهم

عولوا على منع نبي الله، وطلب إلى النبي أن يتكلم في صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب.

وبدأ محمد بتلاوة بعض آيات القرآن، ودعوتهم إلى الله ورسوله، وترغيبهم في الإسلام، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه أزواجهم وأبناءهم. وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال: "والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع به أزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل حرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر". وهكذا بايعوه واحداً بعد واحد.

ولم تكد قريش تفطن إلى ما يجري في الخفاء حتى استأنفوا التنكيل بالمسلمين من جديد. فنصحهم محمد بالفرار من مكة، قائلاً: "هاجروا إلى يثرب، فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها". ومن ثم هربوا مستخفين مثنى وثلاث إلى المدينة. وهناك قوبلوا بترحاب عظيم، وتسابق إخوانهم في الدين إلى شرف رعايتهم وقضاء مآربهم. ولم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريباً قد غادروا مكة، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أُخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر. وقد حكى عن أحد هؤلاء المسلمين، وهو صهيب، وكان النبي يطلق عليه "أول ثمار الروم" (وكان عبداً روميّاً، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة

وجمع منها ثروة كبيرة) لما شرع في الهجرة قال له أهل مكة : "أتيتنا ها هنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا وبلغت ما بلغت ، ثم تنطلق بنفسك ومالك ، والله لا يكون ذلك ، فقال : أرأيتم إن تركت مالي أتخلون أنتم سبيلي؟ قالوا : نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ النبي فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب".

وتخلف محمد فلم يهاجر (ولا شك أنه كان يقصد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتيال حياته ، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطال مكثه بعد ذلك ، فاحتال للفرار.

الهجرة إلى المدينة :

بداية الحياة القومية للإسلام.. وكان أول ما عنى به محمد بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين —أي مدينة النبي— أن يبني مسجدًا ليكون مقامًا للصلاة ومجمعًا عامّاً لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم. وكان المصلون قد تعودوا العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس ، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود. وقد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية ،

وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية. فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون محمداً نبيّاً لهم، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة.

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة، إذ كان ذلك في الواقع بداية للحياة القومية في الإسلام: فجعل من الكعبة في مكة مركزاً دينياً للمسلمين كافة، كما كانت تماماً في الأزمان الغابرة مقصدًا لحج القبائل العربية جميعاً. ونظير ذلك في الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته.

الإسلام دين عالمي: وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما منحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف: آية٣).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (سورة الشورى: آية ٧).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (سورة فصلت : آية ٤٤).

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الزمر : آية ٢٧ - ٢٨).

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ... بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الشعراء : آية ١٩٢ ، ١٩٥).

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (سورة مريم : آية ٩٧).

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها. ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة ، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب ، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي قيل إن محمدًا بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر. وفي هذه السنة أرسل الرسول كتباً إلى هرقل قيصر الروم ، وإلى كسرى فارس ، وإلى حاكم اليمن ، وإلى حاكم مصر ، وإلى النجاشي. وقد قيل إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي "بسم الله الرحمن الرحيم ؛ من محمد بن عبد الله ورسوله إلى

هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضًا أرباباً من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام، فقد قال الله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (سورة ص: آية ٨٧- ٨٨).

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة يس: آية ٦٩- ٧٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: آية ١٠٧).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الأنبياء: آية ١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ: آية٢٨).

﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالْهُدَى وَدين الْحَقّ ليُظْهرَهُ عَلَى الدّين كُلّه وَلَوْ كَرهَ الْمُشْركُونَ﴾ (سورة الصف : آية١).

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق، عندما كان أهل مكة يمعنون في النفور من كلام النبي (سورة النحل : آية ٤٣ ، ١١٤ إلخ)، وعندما عذبوا من هداهم النبي إلى الإسلام حتى كفروا من بعد إيمان (سورة النحل : آية ١٠٨)، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في الله من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة النحل : آية ٤٣ ، ١١١)، عند ذلك تلقى النبي الوعد ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ من كُلّ أُمَّةٍ شَهيدًا﴾ (سورة النحل : آية ٨٩).

وإن ما يعبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً في قول محمد متنبئاً إن بلالاً " أول ثمار الحبشة "، وإن صهيباً " أول ثمار الروم". أما سلمان، وهو أول من أسلم من الفرس. فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة. وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة، وهى أن

رسول الله قال لأصحابه: " وافوني بأجمعكم بالغداة، وكان إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً، يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم، انصحوا الله في عباده، فإنه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد. فأصبحوا- يعني الرسل- وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم، فذكر ذلك للنبي فقال: "هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده".

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشرى كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد "خاتم النبيين" (سورة الأحزاب: آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً وَاحدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلمَةٌ سَبَقَتْ من رَّبّكَ لَقُضيَ بَيْنَهُمْ فيمَا فيه يَخْتَلفُونَ﴾ (سورة يونس: آية ١٩):

﴿قُلْ مَا كُنتُ بدْعًا مّنْ الرُّسُل﴾ (سورة الأحقاف: آية٩).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبيّينَ مُبَشّرينَ وَمُنذرينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكتَابَ بالْحَقّ ليَحْكُمَ بَيْنَ النَّاس فيمَا اخْتَلَفُواْ فيه وَمَا

اخْتَلَفَ فيه إِلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ من بَعْد مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذينَ آمَنُواْ لمَا اخْتَلَفُواْ فيه منَ الْحَقّ بإِذْنه وَاللّهُ يَهْدي مَن يَشَاء إِلَى صرَاطٍ مُّسْتَقيمٍ﴾ (سورة البقرة: آية ٢١٣).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَن اتَّبعْ ملَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا وَمَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ ﴾ (سورة النحل: آية ١٢٣).

﴿قُلْ إِنَّني هَدَاني رَبّي إِلَى صرَاطٍ مُّسْتَقيمٍ دينًا قيَمًا مّلَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا وَمَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ﴾ (سورة الأنعام: آية ١٦١).

﴿قُلْ بَلْ ملَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا وَمَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ﴾ (سورة البقرة: آية ١٣٥).

﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبعُواْ ملَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا وَمَا كَانَ منَ الْمُشْركينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضعَ للنَّاس لَلَّذي ببَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمينَ﴾(سورة آل عمران: آية ٩٥- ٩٦).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دينًا مّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسنٌ واتَّبَعَ ملَّةَ إِبْرَاهيمَ حَنيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهيمَ خَليلاً﴾ (سورة النساء: آية ١٢٥).

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدّين منْ حَرَجٍ مّلَّةَ أَبيكُمْ إِبْرَاهيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ﴾ (سورة الحج: آية ٧٨).

محمد مؤسس هيئة سياسية منظمة

ولنعد الآن إلى تتبع حياة محمد في المدينة ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديراً حقيقياً، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة. لم يكن يوجد إطلاقاً أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة، فكل فرد لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب، بل كان له مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت القبيلة تشعبت فروعاً كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية، اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة. ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن محمد من أن يجعل نفسه في المدينة، على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً، ولا يعترفون بسلطان

غير سلطانه، - دون إثارة أي شعور من القلق، أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، كما كان ينتظر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة أو في أي مجتمع منظم يماثلها. وهكذا باشر محمد سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم.

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام ولو من الوجهة النظرية على الأقل، كما سن دائماً، نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام ديني.

كانت رغبة محمد ترمي، إلى تأسيس دين جديد. وقد نجح في هذا السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً. وكانت رغبته بادئ الأمر مقصورة على توجيه بني وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله. إلا أنه بجانب ذلك عمل على هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه، وأقام حكومة دينية مطلقة، وقام وهو على رأسها خليفة لله في الأرض بدلاً من حكومة الأرستقراطية القبلية، التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها.

انتشار الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة: "وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد

العرب التي لم تخضع إطلاقاً لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق. ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر خلقت رسالة محمد أمة واحدة وجمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهشة والإعجاب وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية. وهكذا كان النظام القبلي، لأول مرة وإن لم يقض عليه نهائياً (إذ كان ذلك مستحيلا)، شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية، وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعندما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر، وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل لهذا الائتلاف.

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانباً، فيرث الأخ في الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى، ثم ألغي هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضرورياً لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول، وإنما كان مثل هذا النظام لازماً حينما كان عدد

المسلمين قليلاً وكانت حياة التضامن الإسلامي ظاهرة جديدة، زد على ذلك أن محمداً كان قد قضى في المدينة فترة قصيرة جدّاً قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية في النظام الاجتماعي أمراً ليس باليسير تحقيقه من الناحية العملية. ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجري مكة، وتقيم في مدينة تضمر لهم العداء، إلا أن يؤدي هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين. وكما هو مشهور ومعروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية التي قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة، وانتهت بدخوله المظفر في هذا البلد سنة ٦٣٠م. كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عدائية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣ م (١١ هـ).

ومن المهم أن نبين كيف أن محمداً عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد، من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع.

وقد أكد الكتاب الأوربيون مراراً أن النبي سلك مسلكاً جديداً تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحي إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمداً في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين، فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة. ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن

صعصعة في السنة الرابعة من الهجرة. فقد زار أبو البراء بن عامر شيخ هذه القبيلة محمداً في المدينة، واستمع إلى تعاليمه، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام. ومع ذلك أظهر شيئاً من العطف نحو هذا الدين الجديد، وطلب إلى النبي أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر تعاليم الدين بين أهالي هذه البلاد. فأرسل النبي جماعة تتألف من أربعين مسلماً معظمهم من شباب المدينة، الذين حذقوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلاً للدرس وإقامة الصلاة، ولكنهم قتلوا غدراً بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم.

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل، ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبي. وإن "المعاملة الحسنة التي تعودتها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين - كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم، كما جعل صيته ذائعاً في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيداً عظيماً ورجلاً كريماً".

وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوانه إليه. وفى القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحويل إلى الإسلام، وذلك في السنة الخامسة للهجرة:

بعثت بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال ضمام بن ثعلبة رسولاً إلى النبي، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله. ودخل المسجد حيث كان النبي جالساً في أصحابه، فأقبل حتى وقف عليهم وقال: "أيكم ابن عبد المطلب" فقال النبي: "أنا ابن عبد المطلب" قال: "أمحمد؟" قال: "نعم" قال: "إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدنّ في نفسك". قال: "لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك" قال: "أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟" قال محمد: "اللهم نعم"، قال: "فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمر أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟" قال محمد "اللهم نعم" وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها، عن الصلاة والصيام والحج إلخ، وهو يستحلفه مثل ما سبق. وأخيراً قال "...فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه

الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص". ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه. فلما جمعهم كان أول ما قال لهم: "بئست اللات والعزى"! قالوا: "مه يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون"! قال ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه". وما زال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالاً ونساء.

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بنى جهينة التي تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلاً آخر لهؤلاء الدعاة، فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه(٥ هـ). وقد وصف إسلامه بقوله: كان لنا صنم وكنا نعظمه، وكنت سادنه، فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

شهدت بأن الله حق وأنني ... لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساقي الإزار مهاجرًا ... إليك، أجوب الوعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفسًا ووالدًا ... رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثــــه رســـول الله إلى قومـه يرغـب في الإسـلام، فتكللـت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى عليه الترغيب.

ولما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمراً ممكناً، خرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذا البلد الذين كانوا قد أتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة محمد في مستهل بعثته. ومن هؤلاء الرجال من هم ذوي النفوذ والسلطان.

وكانت الحروب المتصلة التي شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي كانت تقيم جنوبي مكة بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين. فجاء وفد صغير من قبيلة بنى دوس من تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبي في المدينة. ونجد قبل ظهور محمد بقليل جماعة من هذه القبيلة مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم، وكانوا يرون أن هذا العالم لابد له من خالق، ولو أنهم لم يهتدوا إليه. فلما بعث

محمد من قبل هذا الخالق، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق.

وبالرغم من أن قريشًا حذرته مما قد يتركه محمد في نفسه من تـأثير خطير إذا ما تحدث إليه، فقد تبع النبي إلى بيته بعد أن رآه يـصلي في الكعبة، فشرح له النبي تعاليم الإسلام، وقد أصبحت نفس طفيـل تفيض تحمساً لهذا الدين الجديد. فلمـا رجـع إلى بلـده أفلـح في هـدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راضـين في تـرك عبـادتهم الوثنيـة القديمـة. فعـاد إلى الـنبي وقـد اسـتولى عليـه اليـأس ممـا أصـابه مـن الإخفـاق في دعوتـه، وطلـب منـه أن يـستنزل لعنـة الله علـى بـني دوس، ولكن الـنبي شـجعه علـى المثابرة بقولـه: "ارجـع إلى قومـك فادعهم وارفق بهم" وفي الوقت نفسه دعا لهم الـنبي بقولـه: "اللـهم اهد دوساً". وقد بلغ من نجاح طفيل في بـث الـدعوة إلى الإسـلام أنـه وفـد علـى المدينـة في الـسنة الـسابعة للـهجرة ومعـه عـدد يـتراوح بـين السبعين والثمانين أسرة من قومه كان الإسـلام قـد ظفـر بانـضمامهم إليه. وبعد أن دخـل الـنبي مكـة دخـول الظـافر أشـعل طفيـل النـار في كتلة مـن الخـشب، وهـى الـصنم الـتي كانـت قبيلتـه تنظـر إليـه نظـرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين.

وفي السنة السابعة للهجرة دخل خمس عشرة قبيلة أخرى في طاعة النبي، ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون: "دعوا محمداً يقاتل قومه فإن نجح فهو نبي حقاً".

ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبي بعد فتح مكة طائفة كانوا أشد الناس اضطهاداً للنبي في أيامه الأولى من بعثته، ولكنه بوأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكاناً من الأخوة الإسلامية. وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف، تلك المدينة التي حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى. فقد كان عروة في ذلك الحين غائباً باليمن، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل. وكان قد قابل النبي في الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ في تعظيمه، والآن يفد على المدينة ليعتنق الدين الجديد، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام. وعلى الرغم مما بذله النبي من جهود في ثنيه عن هذه المهمة الخطيرة، رجع إلى بلده، وأعلن نبذ عبادة الأصنام، ثم دعا الناس إلى الإقتداء به. وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلاً، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد.

وبعد سنة تقريباً قام صحابي آخر بنشر الدعوة في اليمن، وكان أكثر توفيقاً في هذه السبيل. وفيما يلي وصف دقيق عن هذه الدعوة: "كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير: "سَلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. وقالت اليهود "عزير ابن الله"، وقالت النصارى "ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله". (قال): وبعث بالكتاب مع عياش بن ربيعة المخزومي، وقال: وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح، ثم تَطَهر فأحسن طهورك وصلي ركعتين، وسل الله النجاح والقبول، واستعذ بالله وخذ كتابي بيمينك، وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون وأقرأ عليهم: ﴿لَمْ يَكُن الَّذينَ كَفَرُوا منْ أَهْل الْكتَاب وَالْمُشْركينَ مُنفَكّين﴾ إلخ (سورة البينة). فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين. فلن تأتيك حجة إلا دُحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره. وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل "ترجموا"، وقل "حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير". فإذا أسلموا فلهم قُضُبهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهى من الأثل، قضيب ملمع ببياض وصفرة، وقضيب

ذو عُجَر كأنه خيزران، والأسود البهيم كأنه من سأسم، ثم أخرجها فحرّقها بسوقهم". قال عياش: فخرجت أفعل ما أمرني رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم. قال: فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت: أنا رسول رسول الله، وفعلت ما أمرني فقبلوا، وكان كما قال النبي".

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلاً من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد. كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهو بنو رؤاس بن كلاب، على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك وكان في المدينة واعتنق الإسلام، ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به.

وفي هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو واثلة بن الأسقع بمحاولة لم تصادف نجاحاً كبيراً؛ إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام، وكان قد اعتنقه بعد أن لقي النبي مرة، وكان قد طرده أبوه في احتقار وازدراء وقال له: "والله لا أكلمه كلمة أبداً"،

ولم يجد راغباً فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التي جهزته للرجوع إلى النبي بالمدينة. وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن خضوعها وتسليمها. وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية في المجتمع العربي قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة لفكرة القبيلة القديمة، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كتلك الحياة التي صار إليها المسلمون. وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير. وكان محمد قد أفلح في أن يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئا بالفوضى وسوء النظام شعوراً بالوحدة القومية وإدراكاً للحقوق والواجبات، كل نحو الآخر، على نحو لم يعرفه العرب من قبل. وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت

حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض. وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويطرد، نراه في الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئاً فشيئاً. وكثيراً ما نجد في القصص التي وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدهم به النبي من حمايته إياهم من أعدائهم، تلك الوعود التي كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته. وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عندما بلغه خبر وفاة النبي بقوله: واأسفاه على محمد.. لقد عشت في سلام وأمن من أعدائي ما كان حيّاً.

ولابد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيداً في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشاراً واسعا بعد وفاة الرسول مباشرة دليلاً على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام. والظاهر أن قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف، أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية. فقد سمحوا لأنفسهم أن ينجرفوا في هذا التيار الذي كان قد أصبح في ذلك الحين حركة قومية عظيمة. وهنا لا نلمس في هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التي كنا نجدها لدى السابقين إلى الإسلام.

إلا أنــه ظهـــر حتى مـــن بيـــن هـؤلاء كـثيرون زادوا في صـفوف المؤمنين الخلص مدفوعين بحماسة حقيقية في إعلاء شأن الدين، ومستعدين، كما رأينا، لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين إخوانهم.

"كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأصفياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على محمد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير. هو الواقع أسمى وأرقى مما ألفوه من قبل، إنهم انتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه. وفي أحرج أوقات الغزوات التي وقعت فيما بعد، قدم الساسة والقادة منهم دليلاً رائعاً لا سبيل إلى إنكاره على أن أفكار محمد وتعاليمه كانت قد ألقت بذورها في تربة خصيبة، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روي عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث محمد الأدبي. ولقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم

يوماً طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي.

وكان طبيعياً أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تؤلف بين هؤلاء الناس جميعاً. وقليل جداً الذين سلموا من الصدمة التي منيت بها هذه الحركة بوفاة النبي، إذ لا يبعد عن البال كيف ظهر جليّاً إن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تامًا. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.

وهنا الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم محمد من صفة تبشيرية أساسية. ذلك النبي الذي أصبح بذلك رمزًا لأسلوب جديد. فمن المحقق أن محمداً لم يجد المجتمع في عصره مهيأ لقبول دعوة معلم جديد، فضلاً عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذي لم يكن مفهومًا لديهم).

مثل الإسلام العليا ومثل العصر الجاهلي: وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وعجمي أو بين حر

وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده، وأخذ يقتدي بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور. والواقع أن المبادئ الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار.

وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي ديناً يجدّ في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما   يرجَّى الفتى كيما يضر وينفعا

ولقد خاطب النبي أمثال هؤلاء بقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾(سورة المؤمنون: آية ٩٦)، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ (سورة النور: آية ٢٢)، "إذا أحبوا أن يغفر الله لهم. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة آل عمران آية: ١٣٣، ١٣٤).

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم محمد رسالته أول الأمر. وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق، الشيء الذي كان يغرسه الإسلام في النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية، إلا أنه لم يكن في الواقع معروفاً لدى الوثنيين من العرب، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس، وذلك النقص في الروح الدينية، فضلاً عن مباهاتهم البالغة بالجنس، لم يجعلهم مهيئين تمام التهيؤ لتلقي تعاليم الرجل الذي خاطبهم قائلاً: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عندَ اللَّه أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: آية ١٣).

ولم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم في الحياة، فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العرب في الجاهلية، وكان النبي صارماً شديداً في نواهيه الخاصة بكل منها.

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين. وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم، وهذا هو الغرض الذي قصدنا إلى توضيحه في الصفحات التالية.

بعد أن، استعرضنا ما قاله البروفيسور الإنجليزي توماس أرنولد في كتابه "انتشار الإسلام" في الباب السابق، نصل مع توماس أرنولد إلى بحثه الشيق حول انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية حتى يتضح للعقل الغربي أن الهلوسات المسعورة والأبواق الإعلامية اليمينية التي تصادر على العقل الغربي وتغتصب حقه في الفهم أن هناك بالفعل محاولات مضيئة لفصله عن الحقيقة وحجزه عنها وتجهيله لتأصيل العداء غير المبرر لنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته عموما، حيث يتصدى الخطاب الحاقد للكتب الكاثوليكية وغيرها للتمدد الإسلامي والمنهج المحمدي الذي يقصي مخالب الشر في هذا العالم وينهى العباد عن عبادة العباد والمادة إلى عبادة رب هذا الكون الواحد الأحد، حيث جماعات الملحدين والماسونية العالمية وعبدة الشيطان وغيرها، تمارس عملها بكل حرية في المجتمعات الغربية.

ومن أجل ذلك ولخوفهم على مصالحهم من المحمدي الذي يشكل خطرا على المدنية الغربية وفلسفاتها المادية القائمة على القوة والاستغلال البشع للإنسان، فإنهم يسعون بكل الطرق وشتى الوسائل لتشويه صورة نبي الإسلام ورسالته ، لكن لابد أن نسعى

جاهدين لتنوير العقل الغربي وكشف محاولات اغتصابه وإبعاده عن إدراك الحقيقة.

وهنا سنترك توماس أرنولد يتحدث عن انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية ليعلم العقل الغربي أن أكذوبة انتشار الإسلام بحد السيف لم تكن سوى أضحوكة ابتدعوها على العقل الغربي.

الفصل الثاني

انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

فتوح العرب وتوسيع الجنس العربي بعد وفاة محمد.. بعد وفاة محمد أرسل أبو بكر الجيش الذي كان النبي قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، على الرغم من معارضة بعض المسلمين، بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك، فأسكت احتجاجاتهم بقوله: "لا أرد قضاء قضى به رسول الله، ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي". وكانت هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاح العرب فيها سوريا وفارس وإفريقية الشمالية، فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها. ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات المختلفة، بل يجدر بنا، فيما يتعلق بانتشار العقيدة الإسلامية التي تبعت الفتوحات العربية، أن نكشف عن هذه الظروف التي جعلت مثل هذا التوسيع أمرًا ممكنًا.

وقد أجاد مؤرخ كبير، عرض المشكلة التي تواجهنا هنا في الكلمات الآتية: هل كانت الحماسة الدينية الخالصة، تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة في الازدهار، صافية

تمام الصفاء هي التي أمدت جيوش العرب بالنصر في كل موقعة من المواقع وأقامت في مثل هذا الزمن القصير أعظم إمبراطورية شهدها العالم؟ لكن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك. إذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبي، وقبلوا تعاليمه عن حرية واقتناع صادق ضئيلاً جداً، على حين نجد من ناحية أخرى أن الأكثرية كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين، إلا عن طريق الضغط عليهم أو طمعًا في نفع دنيوي. وقد عبر خالد، وهو سيف من سيوف الله، في أسلوب جد مؤثر عن هذا المزيج من القوة والإقناع، الذي أسلم عن طريقه هو وكثير من قريش حين قال: إن الله أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم، وأرادهم أن يتبعوا النبي. وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير — وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب في ذلك الوقت منه بين أي شعب آخر، وقد حمل هذا الشعور وحده آلافاً مؤلفة، على أن يؤثروا مواطنهم ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى.

وكان أقوى من ذلك جذبًا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد، ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم

إلا حياة تقوم على البؤس، تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر. ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية، حتى لقد ظُن دائمًا أن هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب. ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية وفي ضياء النصر الذي عزى إليه، حجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة. ولكن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازية، التي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس، لم تكن روح تحمس وغيرة ترمى إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام، بل كان الأمر على العكس من ذلك، فإن البواعث الدينية، كما يظهر، لم تكن قد تسربت إلا قليلاً في نفوس أبطال الجيوش العربية. ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلادًا أكثر خصباً كانت ملكاً لجيران أسعد منهم حظاً.

وقد ظلت الحكومة الدينية قائمة في المدينة، ومن بعدها الدولة الجديدة التي أنشأها صحابة النبي الأصفياء وأمناء دعوته الأوفياء،

هؤلاء الذين استطاعوا بفضل غيرتهم وخلقهم القوي أن يحفظوا الإسلام حيّاً كدين رسمي، بالرغم من فتور أولئك العرب الذين لم يكن إسلامهم إلا إسلاما اسميّاً. ومن أجل هذا يجب أن لا تتلمس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها.

تحول البدو المسيحيين إلى الإسلام: وقد كان الطابع القومي لهذا التوسع الجنسي يجذب، بطبيعة الحال إلى جيوش الغزوات العربية، ممثلي العنصر العربي الذين كانوا يقيمون في أطراف الجزيرة، والذين كانت جيوش الفتح تتخذ في بلادهم ممرًا تنفذ منه إلى البلاد التي يريدون غزوها. ومن ثم لم يكن غريباً أن نجد كثيرًا من البدو والمسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة، وأن نجد كثيرًا من القبائل العربية التي دانت بالمسيحية قروناً قد نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالإسلام. وكان من بين هؤلاء قبيلة بني غسان الذين بسطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقي فلسطين وجنوبيّ سورية، والذين كان يقال عنهم إنهم "أرباب في الجاهلية نجوم في الإسلام". وبعد موقعة القادسية (سنة ١٤ هـ) التي انهزم فيها الجيش الفارسي بقيادة رستم هزيمة منكرة، وفد على قائد المسلمين كثير من

المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت تقيم على ضفاف نهر الفرات، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام، كانوا أصوب منا رأياً، واليوم وقد قتل رستم فلندخل في الدين.

وشبيه بهذا، أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي.

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام. فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة. وقد وحد حلف كهذا بين أتباع النبي وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على إثر وفاة النبي. وقد زعم بعض الباحثين من العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي

حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعطى مقابل خدماتهم الحربية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراساً للحدود.

وفي موقعة الجسر (سنة ١٣هـ) حين أوشكت الهزيمة المنكرة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفزع منهم كل مأخذ، وقد حوصروا بين الفرات والجيش الفارسي، إذا بزعيم مسيحي من بني طيئ، ينضم إلى المثنى القائد المسلم كما انضم سبوريوس لارتيوس Spurius Lartius إلى جانب هوراتيوس Horatius من قبل ليساعد في الدفاع عن الجسر الذي كان يتألف من القوارب، والذي استطاعوا عن طريقه وحده أن يرتدوا ارتدادًا منظمًا. وحينما جمعت جموع جديدة لترد عار هذه الهزيمة، كان من بين الإمدادات التي تدفقت من كل فج قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل أراضي الدولة البيزنطية. وفي موقعة "بويب" التي تلتها سنة ١٣ هـ وقبيل هجوم العرب الأخير الذي حول مصير المعركة إلى جانبهم، استوى المثنى على فرسه وتوجه إلى القائد المسيحي وقال له: "إنك امرؤ عربي فإذا حملت فاحمل معي"، فارتد الفرس أمام هجومهم المروع وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة. وفي ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو، وكان قد جاء مع أصحابه، وهم

وجماعة من فرسان البدو في الوقت الذي كان الجيش العربي يتهيأ للقتال. فألقوا بأنفسهم في المعركة في جانب قومهم، وبينما الصراع يزداد عنفًا إذا بهذا الغلام يندفع إلى قلب الفرس، ويقتل قائدهم، ثم يستوي على فرسه المطهمة ويرجع بها ركضًا وسط إعجاب صفوف المسلمين صائحًا في انتصار وهو يمر بهم: "أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان".

التسامح يشمل هؤلاء الذين ظلوا على المسيحية: وكانت القبيلة التي افتخر هذا الشاب بانتسابه إليها إحدى القبائل التي آثرت أن تظل على المسيحية بينما أسلمت قبائل أخرى من تلك التي كانت تسكن بلاد ما بين النهرين مثل بني النمر وبني قضاعة. وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفد إلى النبي في سنة ٩هـ. واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون الوثنية ،الدين الإسلامي، وعقد النبي مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم. ولكن هذه المعاهدة لم تسمح لهم بتعميد أبنائهم. وإن مثل هذا الشرط الذي يختلف تمام الاختلاف عن سياسة التسامح التي تعود النبي أن يسير عليها إزاء العرب المسيحيين الذين سمح لهم بأن يختاروا بين الإسلام ودفع الجزية ولم يرغموا قط على ترك دينهم، قد بعث على الظن بأن الأسر المسيحية من بني

تغلب هي التي اقترحت هذا الشرط من تلقاء نفسها بدوافع اقتصادية. ويدل بقاء المسيحية طويلاً في هذه القبيلة على أن هذا الشرط لم يكن معمولاً به في حقيقة الأمر. وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية، على ألا يقفوا في سبيل أي فرد من أفراد قبيلتهم يرغب في التحول إلى الإسلام أو يعمّدوا وليدًا ممن أسلم آباؤهم. وقد طلب إلى بني تغلب أن يدفعوا الجزية أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والحط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين في دفع الضرائب، لذلك نراهم يؤدون في مقابل الجزية صدقة أو زكاة مضاعفة — وهي ضريبة كانت تجبى من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك، لتنفق على الفقراء. وقد ضايق المسلمين وحز في نفوسهم بوجه خاص أن يروا أي فرد من العرب يسمح له بأن يظل مخلصًا للمسيحية. وقد أسلم السواد الأعظم من بني تنوخ في السنة الثانية عشرة للهجرة عندما أذعنوا لخالد بن الوليد مع غيرهم من قبائل العرب المسيحية، ولكن

يظهر أن بعضهم ظل على عقيدته القديمة قرابة قرن ونصف قرن، إذ قيل إن الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ) رأى نفرًا منهم يقيمون بظاهر حلب، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم، وهو في سورة من الغضب، أن يعتنقوا الإسلام فأجابوا، وكان عددهم خمسة آلاف شخص، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه. أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل، والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم؛ ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين.

كذلك قاوم أهل الحيرة كل الجهود التي قام بها خالد لحملهم على قبول العقيدة الإسلامية. وكانت هذه المدينة من أشهر المدن في تاريخ بلاد العرب، فبدا لبطل الإسلام المغوار أن الإهابة بدمهم العربي كافية لإغرائهم بأن ينتظموا في اتباع نبيّ الجزيرة العربية. ولما

أرسل أهل هذه المدينة المحاصرون سفراءهم إلى قائد المسلمين للنظر في شروط تسليم مدينتهم، سألهم خالد: "ما أنتم، أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل"؟ فقال له عدي، وقد فوض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم: "بل عرب عاربة وأخرى متعربة". قال خالد: "لو كنتم كما تقولون لمَ تحادّونا وتكرهوا أمرنا". قال عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية". قال له خالد: صدقت، اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم، وإن أقمتم في دياركم؛ أو الجزية؛ أو المنابذة والمناجزة. فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة". فقال عدي "بل نعطيك الجزية" قال خالد: تبّاً لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان، أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي".

وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين، لأنه لما كانت القبائل بأجمعها تدخل في الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري أن يأخذوا الحيطة اتقاء ما يحدث من أخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية، وكان من الطبيعي أن تكون هذه الأخطاء مصدر

خوف إذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة. ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مهمتُهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين. وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغارًا وكبارًا يواظبون على حضور صلاة الجماعة لاسيما في أيام الجمع وفي شهر رمضان. ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الإسلام حديثاً من أهمية من أن هؤلاء الذين عهد إليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد إليهم بالولاية على بيت المال.

ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة. وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح، يقول لايارد Layard إنه صادف مخيمًا من العرب المسيحيين في مدينة الكرك، شرقي البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء في الزي أو في العادات.

وقد أخبر رهبان طور سينا بُرْكارْت Burckhardt أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر من البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزًا ماتت سنة ١٧٥٠ ، ودفنت بحديقة الدير.

ولا يزال كثيرون من قبيلة بني غسان الشهيرة يدخلون في الديانة المسيحية ، وهم من أشد القبائل أصالة في العروبة ، دخلوا في المسيحية حول نهاية القرن الرابع الميلادي ، ولا يزالون متمسكين بالدين المسيحي. ومنذ خضوعهم لكنيسة روما منذ قرنين تقريبًا ، وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية.

وإذا ما تركنا الكلام على البدو لننظر في موقف الأهالي الذين استقروا في المدن وموقف المجتمع غير العربي من الدين الجديد ، وجدنا أن الفتح العربي لم يعقبه مثل هذا التحول السريع إلى الإسلام ، ويظهر أن نصارى المدن الكبرى في الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التي لا تزال جموع ضخمة منهم تتعلق بأهدابها.

ولكي نستطيع أن نقدر حالة هؤلاء البدو الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي تقديرًا كاملاً ونقف على قيمة المؤثرات التي أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين ، يحسن بنا أن نجتزئ

بالإشارة إلى حالتهم في ظل الحكم المسيحي في عهد الدولة البيزنطية التي ولت الأدبار أمام السيوف العربية.

إخفاق محاولة هرقل في التوفيق بين الفرق المسيحية: ولقد أفلح جستنيان Justinian قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرًا من مظاهر الوحدة. ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهودًا لم تصادف نجاحًا كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية، فحاول بتفسيره للعقيدة تفسيرًا يستعين به على تهدئة النفوس، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوجد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية. وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١م "أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين، لا اختلاط بينهما ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال، ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة

منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين، بل متجمعة في أقنوم واحد، هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة؛ وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة، وقالوا إنه مركب الأقانيم، له كل الصفات الإلهية والبشرية، ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم. وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة Monotheletism. ففي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية، وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد، فالمسيح الواحد الذي هو ابن الله يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة، ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة".

لكن هرقل لقي المصير الذي انتهى إليه كثيرون جداً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام. ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى

كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب، بل إن هرقل قد وُصم بالإلحاد وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء.

والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المرارة مبلغًا يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجًا على الدين، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح. ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى –بل بالحماسة- هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الديني، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يحدق بهم.

وقد استطاع ميخائيل الأكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبي أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره إخوانه في الدين، وأن يرى إصبع الله في الفتوح العربية. حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون. وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل: "وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت،

والـذي يـديل دولـة البـشر كمـا يـشاء، فيؤتيهـا مـن يـشاء، ويرفـع الوضيع –لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القـوة فنهبـوا كنائـسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقـاب في غـير رحمـة ولا شفقة، أرسـل أبنـاء إسماعيـل مـن بـلاد الجنـوب ليخلـصنا عـلى أيـديهم مـن قبـضة الـروم. وفي الحـق إننـا إذا كنـا قـد تحملنـا شـيئًا مـن الخـسارة بـسبب انتـزاع الكنـائس الكاثوليكيـة منـا وإعطائهـا لأهـل خلقيدونيـة فقـد اسـتمرت هـذه الكنـائس في حـوزتهم. ولمـا أسـلمت المدن للعرب خـصص هـؤلاء لكـل طائفـة الكنـائس الـتي وجـدت في حوزتهـا. (وفي ذلـك الوقـت كانـت قـد انتزعـت منـا كنيـسة حمـص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسبًا هيناً أن نتخلص من قـسوة الـروم وأذاهـم وحـنقهم وتحمـسهم العنيـف ضـدنا، وأن نجـد أنفسنا في أمن وسلام".

فـتح العـرب بـلاد الـشام وفلـسطين: ولمـا بلـغ الجـيش الإسـلامي وادي الأردن: وعـسكر أبـو عبيـدة في فحـل، كتـب الأهـالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: "يا معشر المسلمين، أنـتم أحـب إلينـا مـن الـروم، وإن كـانوا عـلى ديننـا، أنـتم أوفـى لنـا وأرأف بنا وأكف عـن ظلمنـا وأحـسن ولايـة علينـا. ولكـنهم غلبونـا على أمرنا وعلى منازلنا". وغلـق أهـل حمـص أبـواب مـدينتهم دون

جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم.

وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣ ، ٦٣٩م والتي طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجيّاً. ولما ضربت دمشق المثل في عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧ ، وأمنت بذلك السلب والنهب، كما ضمنت شروطًا أخرى ملائمة، لم تتوان سائر مدن الشام في أن تنسج على منوالها. فأبرمت حمص ومنبج (Hieroplis) وبعض المدن الأخرى معاهدات أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب؛ بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة. وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه، جعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية. ولم تكد المخاوف الأولى التي أثارها نزول جيش فاتح في بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوي لمصلحة العرب الفاتحين.

تسامح العرب وعهودهم : أما ولايات الدولة البيزنطية، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم

من الآراء اليعقوبية والنسطورية فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعاً لإثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة حتى لا يؤذي ذلك الشعور الإسلامي. ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح - الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع- من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية.

وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات. وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهي على جانب من الأهمية من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية التي أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري- وهي رواية كان من العسير أن تستقر دعائمها لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها. ولا بأس من أن نورد هنا الشروط. التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سَلَّم له بيت المقدس: "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم

وكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم".

وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين وأربعة من الطبقة الوسطى وثلاثة من الفقراء. وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق، وقيل إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك، ولكنه بعد أن فكر أعتذر وهو يقول: إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدّعون فيما بعد، أنه محل لعبادة المسلمين.

ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطي قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرّى عليهم القوت. وهو لا ينسى الذميّن (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين) حتى في آخر وصاياه، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي فقال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم".

عهد عمر: وتنسب بعد الأجيال المتأخرة إلى عمر عددًا من القيود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة، إلا أن دي غوية De Goeie وكيتاني Caetani قد أقاما الدليل الذي لا يدع مجالاً للشك على أن هذه القيود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة؛ ومع ذلك فقد قَبل فقهاء المسلمين الذين عاشوا في أزمان أقل تسامحًا هذه العهود على أنها صحيحة، ومن ثم كانت على جانب من الأهمية في تكوين حكم عن حالة الكنائس المسيحية في ظل الحكم الإسلامي. وإليك هذا العهد الذي أطلق عليه عهد عمر بنصه: "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا الكتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديرًا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب؛ ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين؛ وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نعلم أولادنا القرآن؛ وألا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحدًا؛ وألا نمنع

أحـدًا مـن ذوى قرابتنـا الـدخول في الإسـلام إن أرادوه ؛ وأن نـوقر المسلمين ؛ وأن نقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلـوس ؛ ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامـة ولا نعلـين ولا فـرق شـعر، ولا نـتكلم بكلامهـم ولا نكـتني بكنـاهم، ولا نركـب السروج، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً مـن الـسلاح ولا نحملـه معنـا، ولا نـنقش خواتيمنـا بالعربيـة، ولا نبيـع الخمـور، وأن نجـز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زيَّنا حيث ما كنا ؛ وأن نشد الزنانير على أوسـاطنا ؛ وألا نظهـر الـصليب علـى كنائـسنا ؛ وألا نظهـر صُـلبنا وكتبنـا في شـيء مـن طـرق المـسلمين ولا أسـواقهم ؛ وألا نـضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلا ضـرباً خفيّـاً ؛ وألا نرفـع أصـواتنا بـالقراءة في كنائـسنا في شـيء مـن حـضرة المـسلمين ؛ وألا نخـرج شـعانين ولا باعوثاً، وألا نرفع أصواتنا على موتانا، ولا نظهـر الـنيران علـيهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا نجاورهم بموتانـا ولا نتخـذ مـن الرقيـق مـا جـرى عليـه سـهام المسلمين وأن نرشـد المـسلمين ولا نطلـع في منـازلهم...... ولا نـضرب أحـداً مـن المـسلمين. شـرطنا لكـم على ذلـك علـى أنفسنا وأهـل ملتنـا وقبلنـا عليـه الأمـان، فـإن نحـن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فـلا ذمـة لنـا، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق".

وأول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفي حول منتصف القرن الخامس الهجري ؛ وتمثل شروطها ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصبًا وأبعد عن التسامح. والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون نظماً قد طبقت بصفة غير مطردة ، وكان الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الديني لإجابة أي مطلب لتطبيق هذه الشروط. وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوح الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم. والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذي عرضهم لدفع الجزية — وهي كلمة كانت تدل أصلاً على الضريبة من أي نوع يدفعها غير المسلمين من رعايا الدولة العربية إلا أنها أصبحت أخيرًا تدل على ضريبة الرأس حين وضع الولاة الجدد النظام المالي. لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم ، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين. ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية ، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلاً من

الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنويّاً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية. وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادي للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية للحكومة العربية، حول نهاية القرن الأول، إلى أن تشدد على المسلمين الجدد في أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم في زمرة المؤمنين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن غير المسلمين من الأهلين كانوا يعرضون أنفسهم دائمًا لأن يكونوا ضحايا الاضطهاد المالي عندما تكون الدولة في حاجة إلى زيادة الخراج.

الجزية: ولم تكن مقادير الجزية التي فرضها الفاتحون الأولون متماثلة، ولم يتفق أبو حنيفة ومالك، وهما الإمامان المشهوران، في بعض التفاصيل التي لا تصل إلى درجة كبيرة من الأهمية. وقد تتخذ من المعلومات التالية التي استقيناها من كتاب الخراج الذي وضعه أبو يوسف تلبية لطلب هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ) دليلاً يمثل لنا بوجه عام الطريقة التي سار عليها المسلمون في جمع الخراج في عهد الدولة العباسية. فكان على الموسر أن يدفع في السنة ثمانية وأربعين درهمًا، وعلى الوسط أربعة

وعشرين، بينما يؤخذ من المحتاج كالحراث العامل بيده اثنا عشر دهمًا، وإن جاءوا بعرَض قبل منهم، مثل الدواب والتجارة والمتاع، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدلاً من النقد، ولا يؤخذ منهم خنزير ولا خمر ولا ميتة. وكانت الضريبة لا تجبى إلا من الذكور القادرين ولا تجبى من النساء والصبيان؛ وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذي يتصدق عليه، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار، وكما أعفى المترهبون الذين في الديارات، وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين، أما إن كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية. وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ولا ينزلوا بهم عقابًا جسمانيًّا إذا لم يؤدوا الجزية.

الغرض من فرض الجزية: ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة

الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة "أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم". وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: "فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا". ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث، أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيده قائد العرب، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم". وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: "ردكم الله علينا ونصركم

عليهم (أي على الروم)، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقي لنا".

على من فرضت؟ وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبوا بأدائها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونًا لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم. ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة ٢٢ هـ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية.

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي. مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا Migaris وهم جماعة من ميسيحيي ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال

Cithaeron و Geranea التي كانت تؤدي إلى خليج كورنثة، وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب، وكذلك لم يدفع أهالي Hydra المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية.

وقد أعفي أيضًا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلق عليهم Armatoli. وكانوا يؤلفون عنصرًا هامًّا من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون Mirdites وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالي أسكدار Scutari، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب. وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرءوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة نظرًا إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفي الفلاحون المصريون من

الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين.

المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي : ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني ، تمتعوا ، وخاصة في المدن ، بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة.

وقد توسع معاوية (٦٦١- ٦٨٠م) (٤١- ٦٠هـ) في إلحاق المسيحيين بخدمته ، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك. وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة ، مثل الأخطل وهو عربي نصراني كان شاعرًا للبلاط ، ومثل أبي القديس يوحنا الدمشقي مستشار الخليفة عبد الملك (٦٨٥- ٧٠٥م) (٦٥- ٨٦هـ).

وكان في خدمة الخليفة المتعصم (٨٣٣- ٨٤٢م) (٢١٨- ٢٢٧هـ) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين : أحدهم يدعى سلمويه ويظهر أنه كان يشغل منصبًا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها ، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في

البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنه عاده في مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته، وأنه أمر في يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب.

واختار عبد الملك عالمًا مسيحيّاً من مدينة الرها يدعى أثناس Athansius مؤدباً لأخيه عبد العزيز. وقد رافق أثناس هذا تلميذه إلى مصر عندما عين والياً عليها، وهناك جمع ثروة طائلة، قيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد، كما ملك كثيرًا من الدور والبساتين. وكان الذهب والفضة عنده "كأنها الحصى"؛ وكان أولاده يأخذون من كل جندي دينارًا عندما يتسلم راتبه، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ جندي، فإنه من الممكن أن نكوّن فكرة عن الثروة التي جمعها أثناس خلال الإحدى والعشرين سنة التي قضاها في هذه البلاد. وفي نهاية القرن الثامن نرى رجلاً يدعى أبا نوح الأنباري كاتب أبي موسى بن مصعب والي الموصل، قد استغل نفوذه القوى لمصلحة بنى جلدته من المسيحيين.

وفي عهد المعتضد (٨٩٢- ٩٠٢م) (٢٧٩- ٢٨٩هـ)، كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيّاً. وقد وافق الخليفة على تقليده

هذه الولاية، بحجة أن النصراني في نظره أجدر بأن يستخدم إذا وجد صالحًا، إذ أن هناك أسبابًا قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس. وعهد الموافق، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتمد (٨٧٠- ٨٩٢م) (٢٥٦- ٢٧٩هـ) أمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد نصرانيًا آخر كاتباً له، وهو ملك بن الوليد. وفي عصر متأخر تولى في أيام المقتدر (٩٠٨م- ٩٣٢م) (٢٩٥هـ- ٣٢٠هـ) نصراني آخر امر ديوان الجيش.

كذلك كان نصر بن هارون مسيحيّاً، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٩٤٩م- ٩٨٢م) (٣٧٧- ٣٧١هـ) الذي حكم العراق وجنوبي فارس. وقد ظلت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس. وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدّاً، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكارًا يكاد يكون تامّاً. وكثيرًا ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة، ولقوا تكريمًا كبيرًا في بيوت العظماء، فجبريل الذي اتخذه الخليفة هارون الرشيد طبيبًا خاصّاً كان مسيحيّاً نسطوريّاً بلغ إيراده السنوي ٨٠٠٠٠٠ درهم من أملاكه الخاصة فضلاً عن راتب قدره

٢٨٠٠٠٠ درهم في السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة ؛ وكان الطبيب الثاني وهو نصراني أيضًا يتقاضى ٢٢٠٠٠ درهم في السنة. وكان المسيحيون يجمعون أموالاً وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة. والواقع أن هذه الثروة هي التي طالما أثارت طمع الدهماء الذي يقوم على الحسد — وهو شعور دفع المتعصبين من المسلمين إلى انتهاز هذه الفرصة لاضطهادهم وإيقاع الظلم بهم ؛ أضف إلى ذلك أن الطوائف غير الإسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تكون تامة. لأن الحكومة وضعت في أيديهم التصرف في شئون الداخلية تصرفًا مطلقًا ، وكان رؤساؤهم الروحانيون يباشرون واجباتهم القضائية في القضايا الخاصة بأبناء دينهم فحسب. ولم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة ، حيث تحول بعضها إلى مساجد — وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظراً لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي.

وقد أشار النقد التاريخي الحديث إلى استحالة الأسطورة القائلة بأنه لما استولى العرب على دمشق ، قسمت الكنائس بالتساوي بين المسيحيين والفاتحين ، بحجة أنه بينما كان أحد القواد المسلمين يشق طريقه إلى المدينة عنوة من الباب الشرقي ، كان قائد آخر يتلقى

تسليم حاكم المدينة عند الباب الغربي ؛ كذلك دل اختبار طبوغرافية البناء على أن كاتدرائية القديس يوحنا الكبرى لا يمكن بحال أن تكون قد استخدمت على النحو الذي وصفه بعض مؤرخي العرب وهو أنها كانت مكانًا عامًا لعبادة المسلمين والمسيحيين على السواء. ولكن مجرد اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن مثل هذا الإجراء قد استمر قرابة ثمانين عامًا، دليل على ما أعطى منذ وقت مبكر للمسيحيين من حرية في إقامة شعائرهم الدينية.

بناء الكنائس : ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسالة اختلافًا بيناً، من أكثر المذاهب تسامحًا وهو المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار المصرية مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائمًا إذا ما خرب واعتراه البلى، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية — إلى أكثر المذاهب تشددًا وهو المذهب الحنبلي، الذي يرى أنه لا يجوز بناؤها ولا إصلاحها إذا ما تهدمت أو أصابها التلف، ورأى بعض الفقهاء أن المزايا قد اختلفت تبعًا لما منحتهم المعاهدات إياه من حقوق. ففي المدن التي أخذت عنوة لا يصح للذميين أن يقيموا فيها دورًا للعبادة، أما إذا أبرمت معاهدة تنص على ذلك فقد سمح لهم ببناء

كنائس ومعابد يهودية جديدة. لكن هذه الفتاوى، ككثير من بحوث الفقهاء المسلمين، كانت صلتها ضعيفة بالحقائق الواقعية. فربما اتفق أصحاب المذاهب على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دورًا للعبادة في المدن التي أسسها المسلمون، ولكن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة، العاصمة الجديدة، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في المدن الأخرى كنائس وأديارًا جديدة. وإن مجرد ما يقال من أن عمر الثاني (٧١٧- ٧٢٠م) (٩٩- ١٠١هـ) قد أمر في نهاية القرن الأول للهجرة بهدم كل الكنائس التي استحدثت، وأنه بعد أكثر من قرن أعاد المتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) الذي اشتهر بتعصبه الديني نفس هذا الأمر، ليوضح كيف أن تحريم بناء كنائس جديدة قلمًا كان يوضع موضع التنفيذ. ولدينا أمثلة دوّنها عن بناء كنائس محدثة مؤرخون من المسيحيين والمسلمين على السواء: مثال ذلك أن أحد النصارى من ذوي اليسار في مدينة الرها يدعى أثناس قد بنى في عهد عبد الملك (٦٨٥م- ٧٠٥م) (٦٥- ٨٦هـ) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم، كما أقام بناء للتعميد تكريمًا لصورة المسيح التي كان إرسالها إلى الملك أبجر أمرًا مشهورًا في ذلك الحين؛ وكذلك بنى عدد من الكنائس والأديار في جهات كثيرة من مصر من بينها

كنيستان عظيمتان في الفسطاط. وقد طلب بعض الفراشين من النصارى الذين كانوا في خدمة عبد العزيز بن مروان (أخي عبد الملك) والي مصر أن يأذن لهم ببناء كنيسة في حلوان، وقفت على القديس يوحنا، مع أن هذه المدينة من المدن التي أسسها المسلمون. وفي سنة ٧١١م (٩٢م) بنيت كنيسة يعقوبية بإذن من الخليفة الوليد (٧٠٥- ٧١٥م)، (٨٦- ٩٦هـ). وفي السنة الأولى من حكم يزيد الثاني (٧٢٠م) (١٠١هـ) دخل أنطاكية مار إلياس Mar Elias بطريق أنطاكية اليعقوبي تحفه الهيبة والوقار، ويصحبه رجال الكنيسة والرهبان، ليبارك كنيسة جديدة كان يرجع إليه السبب في بنائها؛ وفي السنة التالية بارك كنيسة أخرى في قرية "سرمده" من أعمال أنطاكية. وكانت المعارضة الوحيدة التي لقيها، من ناحية الطائفة المسيحية المنافسة التي قبلت قرارات مجمع خلقيدونية. وفي العهد التالي بنى خالد القسري الذي كان واليًا على العراقيين العربي والعجمي من (٧٢٤م- ٧٣٨م) (١٠٥- ١٢٠هـ) كنيسة لأمه النصرانية تتعبد فيها. وفي سنة ٧٥٩م تم بناء كنيسة في نصبين، أنفق عليها الأسقف النسطورى سايبريان Cyprian ستة وخمسين ألف دينار، وإلى هذا القرن نفسه يرجع تاريخ كنيسة أبي سرجه في الحصن الروماني القديم بمصر القديمة.

وفي حكم المهدي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨- ١٦٩هـ) بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين كانوا قد أسروا خلال الحملات الكثيرة التي وجهت لبلاد الدولة البيزنطية. وبنى أهل سمالو كنيسة أخرى في هذه المدينة نفسها في عهد هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ)، وكانوا قد أذعنوا لطاعة هذا الخليفة وأخذوا منه الأمان؛ وفي عهد هذا الخليفة نفسه تلقى سرجيس Sergius مطران البصرة النسطوري إذناً ببناء كنيسة في البصرة، مع أن هذه المدينة قد أسسها المسلمون في عهد الخليفة عمر سنة ٦٣٨م (١٧هـ). وبنيت في بابليون كنيسة فخمة تضم جثماني النبيين دانيال وحزقيال. ولما جاء المأمون مصر (٨١٣- ٨٣٣) (١٩٨- ٢١٨هـ) أذن لاثنين من فراشيه النصارى ببناء كنيسة على جبل المقطم القريب من القاهرة، كما سمح هذا الخليفة لأحد ذوي اليسار من المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة في مصر. وقد شيد البطريق النسطوري طيماثاوس Timatheus المتوفي سنة ٨٢٠م كنيسة في تكريت وديرًا في بغداد. وفي القرن العاشر، بنيت في الفسطاط كنيسة أبى سيفين القبطية الجميلة، كما بنيت في جدة كنيسة جديدة في عهد الظاهر سابع الخلفاء الفاطميين في مصر (١٠٢٠- ١٠٣٥م) (٤١١- ٤٢٧هـ). وشيدت في عهد الخليفة

العباسي المستضئ(١١٧٠- ١١٨٠م) (٥٦٦- ٥٨٥هـ) كنائس وأديار جديدة. وفي سنة ١١٧٨ بنيت كنيسة في الفسطاط وُقفت على السيدة العذراء الطاهرة.

نهضة الكنيسة النسطورية: والواقع أنه منذ أن عرقل قيام الحكم الإسلامي تقدم الكنيسة المسيحية يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها منذ أن صاروا رعية للمسلمين. وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء، قد مكنهم من أن يسيروا قدمًا في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية في القرن الثامن الميلادي. وفي العصر نفسه تقريبًا رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا، حتى إذا جاء القرن الحادي عشر، كانوا قد جذبوا عددًا كبيرًا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار.

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين ؛ إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء، وكانت فضلاً عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضًا. وفي القرن الخامس أغرى برصومًا، وهو أسقف نسطوري، ملك الفرس بأن يدبر اضطهادًا عنيفًا للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلى مبادئهم، ويقال إن عددًا يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، مع عدد ضخم من العلمانيين، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد. وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس، بعد أن غزا هرقل بلاد فارس، وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين، ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرّمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم ؛ بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدًا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر، استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية، ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن

المسلمين أعادوها أخيرًا إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن دل الأرثوذكس على ملكيتهم لها.

أسباب تحول المسيحيين إلى الإسلام: وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد. ولكن مما يؤسف له، أنا لا نملك إلا أخبارًا قليلة، ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين. ويرجع وجود بعض المفكرين الذين هيأتهم اتجاهاتهم الفكرية لقبول مواقف المسلمين حيالهم في عصر كهذا العصر حافل بالتأمل الديني. وكان من هذا النوع أولئك الشهريغان أو ملاك الأراضي في فارس في القرن الثامن الميلادي وكانوا مسيحيين اسمًا، ولكنهم اعتقدوا أن المسيح لم يكن إلا رجلاً عاديًا وأنه كسائر الأنبياء. ويظهر أنهم كانوا يثيرون من حين إلى حين متاعب كثيرة لرجال الدين من النساطرة الذين كانوا يلاقون عنتًا شديدًا لإدخالهم في مسالك الأرثوذكسية، ولكن موقفهم الديني كان أشد صلة بالإسلام منه بالعقيدة

المسيحية. ويحتمل أنهم أقبلوا على الإسلام فزادوا في صفوف الـذين تحولوا إلى ذلك الدين بعد أن فتح العرب بلاد الدولة الفارسية.

ويـزعم كـثير مـن علمـاء اللاهـوت المـسيحيين. أن حالـة الكنيـسة الـشرقية الـتي تـدهورت في ذلـك الوقـت – مـن النـاحيتين الخلقيـة والروحية- لابد أن تكون قـد دفعـت كـثيرين إلى أن يلتمـسوا جـّوًا روحيّاً أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الـذي جـاءهم وهـو في أشـد مـا تكـون الحماسـة الغـضة قـوة وعنفًـا. وعلـى سـبيل المثـال، يتـساءل ملمـان Dean Milman: "مـاذا كانـت حـال العـالم المسيحي في الأقاليم الـتي تعرضـت لأولى غـزوات الإسـلام؟ كانـت الأحزاب الدينيـة ينـاوئ بعـضها بعـضًا، ورجـال الكنيـسة يتنـازعون فيما بينهم علـى أشـد مـسائل الـدين إبهامًـا وأكثرهـا غموضًـا، فيمـا يتعلق بمـا وراء الطبيعـة في العقيـدة الدينيـة. والأرثـوذكس والنـساطرة وأتبـاع أوطيخـوس واليعاقبـة يـضطهد بعـضهم بعـضًا، وقـد اسـتحكمت بيـنهم العـداوة الـتي لا تفـتر ولا تنقطـع؛ ولا نكـون مبالغين في الحكم على مساوئ الجدل الـديني إذا افترضـنا أن كـثيرين ربمـا فرحـوا بوقـوع خـصومهم في إسـار الكفـار، إذ كـان هـذا أفـضل عنـدهم مـن أن يجمـع بيـنهم هـدف مـشترك في سـبيل الـدفاع عـن المسيحية التي تربط بينهم. فكم من أناس لابـد أن يكـون هـذا الجـدل

المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان يكون غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم في ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته". وشبيه بهذا ما يراه كيتاني Caetani من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة

إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب.

أضف إلى هذا قول تايلور Canon Taylor "إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشرت تلك اليهودية المهذبة بهذه السرعة في إفريقية وآسيا. كان أئمة اللاهوت في إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائد ميتافيزيقية عويصة: ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة –فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة- وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة؛ كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات؛ لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار

عقابًا أليماً ؛ وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير؛ ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة ؛ ومنح العبد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية".

الثورة على النظام الكنسي البيزنطي: أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي الأعظم فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك. وفي عهد (جستنيان Justinian) نرى هذا النظام يزداد تعسفًا حتى يستحيل استبداد يجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على السواء.

وفي سنة ٥٣٢م انفجر السخط، الذي كان سائدًا في القسطنطينية، على الكنيسة والدولة معًا، وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص. أما حزب الجرين Greens الذي كان اسمه يطلق على جماعة المتذمرين، فقد وضعوا في ناديهم احتجاجًا قويّاً صريحًا على

اضطهاد الإمبراطور، ونادوا قائلين: "لقد فقد العدل من الدنيا ولن يكون مرة أخرى. ولكنا سنتهود، بل سوف نعود إلى عبادة الوثنية الإغريقية". ولم يمح مرور قرن من الزمان شيئًا من بواعث السخط الذي تجلى في هذا المقام في مثل ذلك التعبير القوي، إلا أن يد الحكومة البيزنطية الغاشمة قد حالت دون اندلاع ثورة كتلك الثورة التي حدثت سنة ٥٢٣م، وأرغمت المتذمرين على التفرق. ومع ذلك انكشف في القسطنطينية في سنة ٥٣٠م أمر جماعة وثنية متسترة فأنزل بهم العقاب. بيد أن أمثال هؤلاء المتذمرين الذين كانوا يقيمون في أطراف الإمبراطورية؛ بمنأى عن العاصمة، كانوا أكثر طمأنينة، وقد اتخذ الهراطقة الذين اضطهدتهم الحكومة وغيرهم من الساخطين على كنيسة الدولة البيزنطية من الشرق ملجأ يلجئون إليه، وهنا لابد أن تكون جيوش المسلمين قد لقيت ترحيبًا من أبناء هؤلاء الروحانيين الذين كانوا قد رغبوا قبل ذلك الحين بمائة سنة في أن يستبدلوا بالدين المسيحي عقيدة أخرى.

أضف إلى ذلك أيضًا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان، كما كان كذلك للتماثل الذي تم تدريجيًا في الأخلاق والعادات، والذي أدى في خلال ما يقرب من

قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجًا قويّاً في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم — كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدّاً أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيرًا بالغًا، ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح في ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية. وقد حفظ لنا أحد كتاب المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري حديثًا مع أحد الأقباط نستطيع أن نعتبره في شيء من الاطمئنان مظهرًا للاتجاه العقلي العام عند سائر الكنائس الشرقية في تلك الفترة: "دليل على صحتها (صحة الديانة المسيحية) وجودي إياها متناقضة متنافية. تدفعها العقول وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها. لا نظر يقويها، ولا جدل يصححها، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها. ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكًا عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي قد انقادوا إليها وتدينوا بها، فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ما ذكرت

من تناقضها في العقل إلا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم إليها".

تأثير فكرة إنكار الوحي والأخذ بالعقل وحده: هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نذكر أن هؤلاء الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام تحت تأثير الاتجاهات العقلية التي سادت ذلك العصر قد وجدوا في الآراء الدينية عند المعتزلة كثيرًا من المبادئ التي كانت مشتركة بين العقيدتين، حتى إنه بقدر ما كان لأصول العقيدة والاتجاه العقلي نحو كثير من المسائل الدينية من علاقة، فإننا نرى أن هذا التحول لم يبلغ من الشدة الحد الذي يظنه بعض الباحثين. وإذا ضربنا صفحًا عن ذكر تلك المبادئ الأساسية المتعددة التي تتبادر حتى إلى أذهان هؤلاء الذين لا يعرفون عن تعاليم النبي إلا النزر اليسير، كانت هنالك وجهات نظر أخرى كثيرة مشتركة بين الديانتين، كانت نتيجة مباشرة للصلات الوثيقة التي قامت بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين في دمشق في عهد الخلفاء الأمويين، كما قامت أيضًا هذه الصلات في أزمات متأخرة، إذ ثبت أن هناك شواهد بينة تدل على ما كان لعلماء اللاهوت البيزنطيين من أثر في تقدم البحث في المذاهب الإسلامية بصورة منظمة. وإن أقدم أحكام الدين التي وضعت باللغة العربية لتوحي إلينا صيغتها

وترتيبها بالشبه بينها وبين الرسائل المماثلة لها، التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين. وقد نشأ أقدم أنواع التصوف العربي الذي كان متجهًا اتجاهًا خالصًا نحو حياة التقشف (كما كان يتميز عن التصوف الحلولي الذي جاء فيما بعد)، نشأ هذا النوع بتأثير الأفكار المسيحية إلى حد بعيد. ويمكن أن نتتبع هذا التأثير في عقائد بعض فرق المعتزلة بوجه خاص، الذين شغلوا أنفسهم في الجدل في صفات الطبيعة الإلهية. كما كان يفعل علماء اللاهوت البيزنطيون تمامًا. فمن المحتمل أن تكون القدرية أو القائلون بالإرادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم في حرية الإرادة من المسيحية مباشرة، كما نجد المرجئة، في إنكارها لنظرية العقاب الأبدي تتفق تمام الاتفاق مع الكنيسة في هذا الموضوع، وهو رأي يناقض الرأي الذي أجمع عليه أهل السنة من المسلمين. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الأئمة الذين كانوا أكثر تحمسًا للعقائد السنية في الإسلام كان لهم تأثير في تحول الكفار إلى هذا الدين؛ ويستدل على ذلك بالرواية القائلة بأن عشرين ألف مسيحي ويهودي ومجوسي أسلموا يوم مات الإمام الأكبر أحمد بن حنبل. وقد ذكر أن أبا الفرج ابن الجوزي (١١١٥- ١٢٠١م) الفقيه السني المشهور الذي كان أعلم أهل زمانه وواعظًا معروفًا وكاتبًا من

أسبق الكتاب، أنه كان يفخر بأن مثل هذا العدد من الناس قد دخل في الإسلام على يديه.

طابع السيادة في الحضارة الإسلامية: أضف إلى ذلك أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، وقد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم.

الجنس الحاكم: كان المثل الأعلى الذي يهدف إلى إخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة، ومع أن اعتداد العرب بنسبهم قد عمل مدة أجيال كثيرة على ألا ينال المسلمون المحدثون تلك المزايا التي كان يتمتع بها الجنس الحاكم، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع، وهم لا يزالون موالي للقبائل العربية المختلفة، التي كانوا قد تعودوا بادئ الأمر أن ينضووا تحت لوائها، وفي نهاية القرن الهجري الأول حققوا لهذا المثل الأعلى مكانه الصادق من العقيدة الإسلامية، كما حققوا له في الدولة اعترافًا نظريًّا على أقل تقدير.

الاضطهادات التي عاناها المسيحيون: ولكن حال المسيحيين لم تكن دائمًا قائمة على هذا التسامح الذي كان في عهد خلفاء صدر الإسلام. فقد كانت تفرض أحيانًا، في سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التي تضايق الأهالي من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين. وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة. وأصدر المنصور (٧٥٤- ٧٧٥)، والمتوكل (٨٤٧-٨٦١م) والمقتدر (٩٠٨- ٩٣٢م) والآمر (١١٠١- ١١٣٠م) وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، مراسيم بهذا الصدد، وصدر مثل هذه المراسم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي. ولكن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائمًا. والحق أنه يمكن أن تكون هذه المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف، الذي يسلكه الموظفون المسيحيون، أو إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلامي. ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت.

وتبدأ معاملة الأهلين من المسيحيين بصورة أشد عنفًا منذ عهد هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ) الذي أمرهم بأن يلبسوا لباسًا يميزهم عن غيرهم وأن يتخلوا للمسلمين عن المناصب. ويدلنا أول هذه المراسيم على أنه قلما روعي عهد واحد على الأقل من تلك العهود التي نسبت إلى الخليفة عمر، وأن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثرًا لشعور ديني بحت بقدر ما كانت أثرًا للظروف السياسية التي سادت هذا العصر. وطالما تجشم المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي المتاعب بسبب ما أضمره الغرباء من الحكام المسيحيين من سوء الظن في العقيدة الإسلامية، كما ظهر ذلك في علاقاتهم بأمراء المسلمين. وهذه الحالة تفسر لنا ما ارتكبه الإمبراطور البيزنطي نقفور Nicephorus من غدر وجعلت اسم المسيحي مبغضًا إلى هارون الرشيد. ويمكن أن نرجع كثيرًا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك في ولائهم الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى الشعور السيئ، الذي أثاره ذلك المسلك القائم على الخيانة والقسوة، الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين على أن التعصب الديني مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات، كما حدث في

عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) الذي اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف. فقد استغل هذا الخليفة ما كان قد حدث في العقيدة الإسلامية من رد فعل قوي للحركات العنيفة التي شنها أهل السنة على النزعات التي قامت على التعقل والتفكير الحر، والتي كانت قد وجدت مرعى خصيبًا في عهد من سبقهم من الخلفاء – وتقدم باعتباره بطل جماعة المتزمتين من أهل السنة الذين كان السواد الأعظم من الناس ينتمون إليهم على حين كانت الطبقات العليا تختلف معها في الرأي، والذين كانوا متعطشين للانتقام لتلك الاضطهادات التي كانوا هم قد تعرضوا لها في عهد المعتصم والواثق من قبل، فأخذ يخطب ودهم عن طريق اضطهاد المعتزلة، وتحريم كل جدل في القرآن وأعلن أن القول بخلق القرآن رأي خارج على الدين، كما أمر بحبس شيعة عليّ وضربهم، ونبش قبر الحسين بكربلاء ومنع زيارة مشهده. وساهم المسيحيون بنصيب في المحن التي تعرض لها سائر الخارجين على الدين، إذ تشدد المتوكل في تنفيذ القوانين التي كانت قد صدرت في عهد من سبقه من الخلفاء، وميز بين أهل الذمة والمسلمين في الملبس، ومنع استخدام المسيحيين في المناصب العامة، وضاعف ضريبة الرأس، وحرم على المسيحيين أن يقتنوا أرقاء من

المسلمين، أو يستخدموا الحمامات التي يستخدمها المسلمون، وضايقهم بما وضعه من قيود أخرى كثيرة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤرخي الكنيسة النسطورية –التي لم يكن بد من أن تقاسي الكثير من هذا الاضطهاد- يعدونه أمرًا حديث العهد انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته. وقد جدد أحد خلفاء المتوكل وهو المقتدر (٩٠٨- ٩٣٢م) (٢٩٥- ٣٢٠هـ) هذه القوانين التي يظهر بوضوح أن انقضاء نصف قرن عليها قد أدى إلى إهمالها. وقد أدت سورات أخرى من التعصب إلى تخريب كنائس للمسيحيين ومعابد لليهود، كما أدى الرعب الذي ألقاه مثل هذا الاضطهاد في النفوس إلى ارتداد كثيرين عن الكنيسة المسيحية. ولكن مثل التعسف هذا كان منافيًا لروح الإسلام السمحة، وللتعاليم التي أثرت عن النبي، وقد حاول الفريق المتعصب، دون جدوى، أن يفرضوا تنفيذ هذه الأساليب التعسفية بصفة مطرده إذلالا للأهالي من غير المسلمين. "فالعلماء (أي المثقفون ورجال الدين) يقدرون هذه الأمور فيبكون ويئنون في صمت، على حين يتغاضى عن هذه الأمور أولئك الحكام الذين أوتوا من السلطة ما يمكنهم من أن يقضوا على هذه المفاسد التي تنطوي على الإجرام". ولا يجوز أن نتخذ الأحكام التي قد تضعها فئة متعصبة من رجال الدين مقياسًا

لما قامت به الحكومات المدنية من تصرفات: ولن نصادف شيئًا من النجاح إذا أردنا التحقيق من هذه الفكرة التي جعلت من الممكن وقوع هذه الصورة المطوية على المبالغة فيما عاناه المسيحيون من متاعب في ظل الحكم الإسلامي والتي صورها هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن فتاوى طائفة معينة من الفقهاء تمثل هذه التصرفات المتباينة. ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعورًا قويّاً من الاستياء وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٥٤- ٧٧٥م) (١٣٦- ١٥٨هـ) والمهدي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨- ١٦٩هـ) والمأمون (٨١٣- ٨٣٣م) (١٩٨- ٢١٨هـ) والمتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) والمقتدر (٩٠٨- ٩٣٢م) (٢٩٥- ٣٢٠هـ) وإلى كثير من خلفائهم. كما تعرضوا أيضًا لبعض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونًا للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أقصي عن الحكم. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في

زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالاً ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودًا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني.

وبمقدار ما كان يشتد العبء على كاهل الشعوب المغلوبة على أمرها كانت تشتد رغبتهم في تخليص أنفسهم من الشقاء، فيقولون: " لا إله إلا الله: محمد رسول الله". وعندما ما كانت الدولة في حاجة إلى المال –إذ كانت الحالة تتطلب هذه الزيادة- كانت الحكومة لا تفتر عن إثقال كاهل الشعوب المحكومة بالضرائب، حتى أصبحت حالة الطوائف من غير المسلمين تزداد سوءًا بصورة مطردة وكلما ازداد هذا الاضطهاد شدة وعنفًا ازداد دخول الناس في الإسلام. وإن هذا السجل المظلم الحافل بالفضائح التي امتلأت بها صفحات مؤرخي المسيحيين في هذا العصر المتأخر ليوحي إلينا بأن الكنائس المسيحية قد أخفقت في تنمية قوة خلقية متينة كافية لتحمل الحالات المناوئة، فإذا ما حل الاضطهاد وارتد المسيحيون عن دينهم، وجب أن نبحث عن هذا الارتداد – كما يظن مؤرخ الكنيسة النسطورية– فيما ساد رجال الكنيسة من إهمال شامل في إقامة الشعائر الدينية وما تطرق إلى حياتهم من فساد.

وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحي في هذه الحقيقة القائلة بأن كثيرًا من الأطفال الأسرى من المسيحيات الكثيرات اللواتي حملن إلى بيوت المسلمين بين طبقة الحريم لم يكن بد من أن ينشئوا على دين آبائهم ، وإن كثيرًا من الإغراء كان يقدمه السيد المترف لمولاه المسيحي بإعتاقه ثمنًا لتحوله إلى الإسلام. ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام ، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند Ferdinad وإيزابلا Isabella دين الإسلام من أسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر Louis XIV المذهب البروتستنتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا ، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامّاً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم.

وقد بقي إلى الآن نحو من خمسين ومائة ألف من نساطرة الكنائس القديمة التي كانت تقيم في غرب آسيا وقت الفتح الإسلامي، وكان يمكن أن يكون عددهم أكثر من ذلك لولا تلك الجهود التي قامت بها كنائس مسيحية أخرى في نشر تعاليمها، فكان عدد الكلديين الذين خضعوا لكنيسة رومة سبعين ألفًا. وفي سنة ١٨٩٨ انضم إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الأسقف النسطوري ماريونان Mar Jonan مع عدة من رجال الكنيسة وخمسة عشرة ألفًا من النساطرة، كما تحولت أيضًا جموع النساطرة إلى المذهب البروتستنتي. وباشر بطريق أنطاكية اليعقوبي سلطته القضائية على نحو من ثمانين ألفًا من أفراد هذه الكنيسة القديمة، على حين انقادت خمسة وعشرون ألف أسرة من اليعاقبة الذين يطلق عليهم (Uniant Jacobites) لأمر البطريق الكاثوليكي السوري. أما فيما يتصل بالكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية، فهناك ثمانية وعشرون ألفًا وستة وثلاثون وثمانمائة أسرة بزعامة بطريق أنطاكية، وأكثر من خمسة عشر ألف شخص برياسة بطريق بيت المقدس على حين بلغ عدد الملكانيين أو الكاثوليك الإغريق قرابة ثلاثين ومائة ألف وكان يتبع الكنسية المارونية، التي اتحدت مع

الكنسية الرومانية الكاثوليكية منذ سنة ١١٨٢م، ثلاثمائة ألف شخص.

ومما يثير العجب أن هذه الطوائف المنعزلة المشتتة قد بقيت زمناً طويلاً معرضة كما كانت من قبل لتخريب الحرب والوباء والمجاعة، تقيم في بلاد كانت ميداناً لحروب لم تنقطع مدة قرون، ويجتاحها الأتراك والمغول والصليبيون. وإنه لا يعزب عن أذهاننا كذلك أن الشريعة الإسلامية قد حرمت عليهم أن يعوضوا عن طريق بذل جهود في سبيل نشر الدعوة ما أصاب عدد هؤلاء المسيحيين من نقص لو أنهم قد وجهوا العناية إلى هذه الغاية حقّاً، إذ يظهر أن هؤلاء المسيحيين (مع استثناء النساطرة) قد فقدوا الروح التبشيرية حتى قبيل الفتح الإسلامي، تلك الروح التي يدلنا التاريخ الحافل بكثير من الشواهد على أنه لا يمكن لهؤلاء أن يحيوا بدونها حياة سليمة في ظل كنيسة مسيحية. ويزعم بعض الباحثين أيضًا أن الرهبنة التي كانت تعتبر مثلاً أعلى للتقشف. والتي كانت منتشرة في الشرق انتشارًا واسعاً، ثم ما جرى عليه المسيحيون من الزواج بواحدة فحسب، وشعورهم بعدم الاطمئنان، وما كانوا فيه من الذل —كل ذلك ربما وقف حجر عثرة في طريق نمو السكان المسيحيين.

جهود نشر الدعوة بين المسيحيين: وليس لدينا إلا النزر اليسير من المعلومات التي تتعلق بتحول الناس إلى الإسلام ويظهر أن المسيحيين في بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام في جموع هائلة. ويمكن أن نكوّن فكرة ما عن مدى التحول المبكر إلى الإسلام في العراق مثلاً، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ ألف ألف و١٢٠ ألف ألف درهم، على حين هبط في عهد الملك، أي بعد نحو خمسون عامًا، إلى أربعين ألف ألف درهم. وبينما يعزى هذا التغير في الخراج، إلى حد كبير، إلى التخريب الذي كان نتيجة الحروب والفتن فإنه ما زال ينسب أولاً وقبل كل شيء إلى هذه الحقيقة، وهي أن جموعاً غفيرة من الأهلين كانوا قد دانوا بالإسلام، ومن ثم لم يطالبون بعد بدفع ضريبة الرأس.

وشهدت هذه الفترة ذاتها تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث Isho Yabh، وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان Simeon مطران ريفارشير Revardashir ورئيس أساقفة فارس. ولا نملك إلا النزر اليسير من الوثائق المسيحية التي ترجع إلى

القرن الأول الهجري، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد، أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلاً، لهذا لا نرى بأسًا من أن نذكرها هنا كاملة: "أين أبناءك؛ أيها الأب الذي ثكل أبناءه؟ أين أهل مرو العظماء، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفًا ولا نارًا ولا تعذيبًا، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب، تنكبوا الطريق المستقيم وكبكبوا في هوة الضلال – في الهلاك المقيم، وسيقوا إلى الفناء ولم ينج إلا قسيسان (قسيسان بالاسم على الأقل) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهيب؟ واحسرتاه! على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل اسم المسيحية، والتي لم يتقدم حتى واحد منا ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه في سبيل الدين الحق. أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء؟ إن الذي انزل بهم الخسران والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد – ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير لم تعده الشياطين التي بعثته في مهمته جديرًا بشرف الشياطين، ولم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطاني حتى يستطيع أن يبثه في بلادكم، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس في بلادكم

فارس.. وإن العرب، الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم، كما تعلمون ذلك حق العلم: ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب، ويجودن بالفضل على الكنائس والأديار. فلماذا إذا هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضًا في وقت لم يرغمهم فيه العرب، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم، على ترك دينهم، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنًا مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم. ولكنهم هجروا العقيدة التي تجلب الخلاص الأبدي إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة: تلك العقيدة التي اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية، إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبة أن يعيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم، بل من أجل ما هو أقل من ذلك". وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠م)، (٩٩ – ١٠١هـ) بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق: فقام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، حتى يمنحهم هبات من المال، وقد قيل إنه أعطى في إحدى

المناسبات قائدًا نصرانيًا (بطريقاً) ألف دينار تألفه بها على الإسلام، بل لقد قيل أيضًا إنه كتب إلى ملك الروم لاون الثالث Leo lll يدعوه إلى الإسلام. وقد ألغى القرار الذي كان قد أصدره عام ٧٠٠م لوضع حد لما أصاب الخزانة من العجز، وقد أدى ذلك إلى أن الشخص الذي كان يدخل في الإسلام لم يعف من دفع ضريبة الرأس، بل أرغم على أن يظل على أدائها كما كان يفعل من قبل، حتى ولو أسلم قبل السنة التي تدفع فيها الجزية بيوم واحد، أو أسلم والجزية في كفة الميزان. ولم يُجْبَ الخراج بعد ذلك من أصحاب الأراضي من المسلمين، بل فرضت عليهم ضريبة أخف من ذلك وهي ضريبة العشر. وكانت هذه الأساليب، وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحاً تامّاً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه الخليفة صاحب العقلية التي أشربت الورع والتدين. فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمرة المسلمين.

ومع ذلك فلا ينبغي أن نعترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين إلى الإسلام. وإن ما كتبه القديس يوحنا الدمشقي (الذي عاش في هذا القرن نفسه)، من الكتب التي ألفها في الجدل لتمدنا بلمحات، عن طريق ما أثاره من جدال في الجهاد الإسلامي الذي يقوم على الحماسة في

سبيل تقويض دعائم العقيدة المسيحية. وإن صياغة هذه الرسائل في قالب الحوار وكثرة التكرار في مثل قوله "إذا سألك العربي" "إذا قال لك العربي... فأجبه" فإن هذه العبارات تعطي مظهراً يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيين لإجابات حاضرة ردّاً على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية. وطبيعي أننا لا ننتظر إلا أن يكون سلوك التحدي الذي ظهر به المجادل المسلم قد عرض بصورة بارزة هذه المحاورات، حيث إنه لم يكن من غرض هذا اللاهوتي الكبير أن يبرر موقف الإسلام فيما يكتب. وكذلك كتب تلميذه، الأسقف تيودور أبو قرة بعض محاورات تقوم على الجدل مع المسلمين طرق فيها المتناظرون كل مواطن النزاع بين العقيدتين، وكان المسلمون كما رأينا من قبل، هم البادئين بالتحدي. ونستطيع بهذا الحوار أن نكوّن فكرة ضئيلة عن النشاط الذي والاه المسلمون في هذه الفترة في عرض قضية الإسلام. قال الأسقف: "تتجه أذهان أبناء هاجر وكل ما لديهم من حماسة نحو إنكار إلوهية الرب: الكلمة، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية وكان البطريق النسطوري طيماثاوس Timotheus يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي، وهارون الرشيد وجمع هذه

المناظرات في كتاب لم يعثر عليه للآن. وقد ضمن طيماثاوس انتخابه لكرسي البطركية إزاء المعارضة النشيطة التي أبداها كثير من أقوى رجال الدين في كنيسته، وكان بين هؤلاء يوسف، مطران مرو، الذي وشى به لدى الخليفة المهدي (٧٧٥- ٧٨٥ م) (١٥٨-١٩٦هـ) ولكن الخليفة قد حثه على قبول الإسلام وكافأه على ارتداده عن دينه القديم بهدايا ثمينة وأسند إليه منصباً من مناصب الدولة في البصرة.

تفصيلات التحويل إلى الإسلام: أما هذه التفاصيل التي تتعلق بالقرنين الأولين للهجرة فإنها يسيرة للغاية، وتدل على أنه كانت هنالك جهود في نشر تعاليم الإسلام أكثر من دلالتها على وقائع معينة. ويظهر أن وثيقة وصلت إلينا وتدل على صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام ترجع إلى عهد المأمون (٨١٣- ٨٣٣ م) (١٩٨ – ٢١٨ هـ) وهي في صورة رسالة كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم، عظيم المنزلة في البلاط، وكان المأمون يحله من نفسه محل الاحترام والتقدير. وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه أن يدخل في الإسلام. وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر. وتحتل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الإسلامية المبكر

مكاناً يكاد يكون فريداً في بابه، ولهذا أوردناها كاملة في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب. ونجد في ذلك المؤلف نفسه وصفاً لحديث حدث به الخليفة في مجلس يضم أشراف دولته تحدث فيه بأشد اللهجات ازدراء لهؤلاء الذين لم يسلموا إلا طمعاً في الدنيا وجرياً وراء مصالحهم الشخصية، ويوازن بين حالتهم وحالة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار النبي في الوقت الذي كانوا فيه يتآمرون على حياته، ومع ذلك فكما كان النبي يدفع بالحسنة السيئة، كذلك عقد الخليفة العزم على أن يعامل هؤلاء معاملة لطيفة رقيقة حتى يقضي الله بينهم. وأن تسجيل هذه الشكوى الصادرة من الخليفة لعلى جانب من الأهمية، من حيث إنها تدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا في الإسلام حديثاً، اقتناعًا بريئًا خالصًا، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة في اعتناقهم للدين قد جرّت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع.

كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود في نشر الإسلام، فأرسل إلى الكفار حتى إلى من كان يقيم منهم في أقصى أجزاء مملكته كبلاد ما وراء النهر وفرغانه يدعوهم إلى الإسلام، ولم يسئ في الوقت نفسه استعمال سلطته الملكية، بمحاولة فرض

عقيدته على غيره: ذلك أنه لما قدم شخص يدعى يزدانبخت زعيم المانوية في زيادة لبغداد وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الإسلام. ولكن يزدانبخت أبى ذلك وقال: "نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس عن ترك مذاهبهم، فلم يبد الخليفة شيئاً من الاستياء لإخفاق محاولته ووكل به حفظة خوفًا عليه من تعصب الغوغاء.

وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحي الذين اعتنقوا الإسلام مثل جرجيس George أسقف البحرين الذي أسلم حول منتصف القرن التاسع، وكان قد أقصى عن منصبه لاتهامه ببعض التهم الكنسية. وإن ما يستحق الذكر في هذا الصدد ما كان إسلام أخ لجبريل، مطران فارس، حول منتصف القرن العاشر، لأنه قيل إن إسلامه كان موضع اعتراض على لياقة جبريل نفسه لانتخابه بطريقًا على الكنيسة النسطورية.

وفي مستهل هذا القرن ذاته أسلم تيودور Theodore أسقف بيت جرماي Beth Garmai، النسطوري، ولم يذكر المؤرخ الكنسي الذي سجل هذه الواقعة شيئًا عن استخدام أية قوة أو

إرغام في إسلام هذا الأسقف، ولو أن شيئًا من ذلك حدث لسجله من غير شك. وبعد عدة سنوات (بين سنتى ٩٦٢- ٩٧٩م) أسلم كذلك فيلوكزينوس Philsxenos أسقف آذريبجان اليعقوبي، وفي القرن الذي يليه في سنة ١٠١٦، ذهب أغناطيوس Ignatius مطران تكريت اليعقوبي إلى بغداد ودخل في الإسلام في حضرة الخليفة القادر، وكان قد شغل هذا المنصب خمسة وعشرين عامًا. وكان يكون من الممتع حقًا لو امتدت فاتحة حياة كل من هذين الداخلين في الإسلام Apologia Pro Vita Sua لتكشف لنا عن التطور الديني الذي احتل مكانًا في عقلية كل منهما ويشير المؤرخ المسيحي إلى فساد الخلق، الذي كان سبباً في التحول عن الدين في الحالات الثلاث الأخيرة. ولكن مثل هذا الاتهام الذي يدعم بشواهد أخرى محل لكثير من الشك، وهو يشبه اتهام أحد الكاثوليك الرومان حينما كان يؤرخ تحول كاهن من طائفته إلى المذهب البروتستنتي. وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين، إلى الإسلام، وكانوا من طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية، إنما كان راجعًا من غير شك إلى مكانتهم السامية في الكنيسة، على حين لم يسجل المؤرخون تحول غير هؤلاء إلى الإسلام من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر. وكلما اقترب

ابن العبري بتاريخه الكنسي من عصره، يقدم تفاصيل أوفى عن حياة أمثال هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، مثال ذلك ما ذكره في منتصف القرن الثاني عشر حين دوّن ما وقع فيه بعض الأساقفة اليعاقبة، من سقطات عامة، ويخص بالذكر هارون أسقف إحدى المدن في خراسان، نظرًا إلى أنه قد أسلم بعد أن ثبتت عليه إحدى الزلات الخلقية. ولما ندم على تحوله عن دينه؛ أراد أن يسترد مركزه الأسقفي، ولكنه لما رفض طلبه، ذهب إلى القسطنطينية وأنكر مبادئ الكنيسة اليعقوبية؛ غير أن المقابلة التي لقيها في القسطنطينية، قد أثارت في نفسه روح السخط والتذمر، فرجع إلى البطريق اليعقوبي، ثم انتقل ثانية إلى الإسلام (بدون أي مبرر)، وعندئذ ندم للمرة الثانية، وأخيرًا قضى أواخر أيامه بين ماروني جبل لبنان. وقد سعى دانيال أسقف خابور الذي كان يعاصر ابن العبري، في منتصف القرن الثالث عشر، والذي قيل إنه كان بارعًا في العلوم الدنيوية، ليعين في أبرشية حلب ولكنه لما أخفق في مسعاه هجر العقيدة المسيحية، وجلب "بإسلامه" الحزن والعار على الشعب المسيحي بأسره. ولكن الله (له المجد!) سرعان ما عزى شعبه المحزون، وأذهب العار عن الشعب الذي خلصه الرب؛ إذ بعد

أشـهر قلائـل مـات هـذا الـشقي التعـيس بائـسًا في إحـدى محطـات القوافل ؛ واندثر اسمه وأقصى عنا ، ولا يعرف أحد مستقره".

على أنه وإن كان التحـول إلى الإسـلام لـيس مجـرد أمثلـة فرديـة ، فـإن لـدينا شـاهدًا فيمـا أورده جـاك دي فـتري Jacques de Vitry أسـقف عكـا (١٢١٦- ١٢٢٥م)، الـذي تحـدث عـن الكنيسة الشرقية بما له مـن خـبرة عـن شئونها في الأراضـي المقدسـة ، فقـال : "حـين عملـت تلـك المغريـات.. الـتي جـاء بهـا الـنبي.. علـى استضعاف هذه الكنيسة وإيقاعها في الشرك على صورة تبعـث علـى الألم المرير ، انغمرت الكنيسة واعتنقت.... وكانت من قبل تتقلب في أعطاف النعيم".

حـالات التحـول إلى الإسـلام بـين الـصليبيين : وإلى ذلـك الحـين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطـاق تـأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التي تفرعـت عنهـا. ولكـن بانتهـاء القـرن الحـادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنـصر جديـد يتـألف مـن هـذه الجمـوع الهائلـة مـن الـصليبيين الـذين كـانوا يدينون بـشعائرهم الأمـم اللاتينيـة ، واسـتقروا في مملكـة بـين المقـدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون ، وظلت تعيش مهددة قرابـة

قرنين من الزمان. وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء. ففي الحرب الصليبية الأولى مثلاً، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعي Rainaud وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقي في إحدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعة بالقيام بهجوم على محاصريهم في الخارج، فتركوا رفاقهم التاعسين وانتقلوا إلى الأتراك حيث اعتنقوا الإسلام بينهم.

ويمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية، تلك الحرب المشئومة، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهي شبيهة بتلك الحادثة. والقصة كما ذكرها أودو الدويلي Odo of Deuil أحد رهبان القديس دينيس Denis الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع، وصحبه في هذه الحرب الصليبية، فكتب في وصفها نبذة هذا نصها: بينما كان الصليبيون يحاولون شق طرقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا Phrygia الجبلية (١١٤٨م) وبلغوا مدينة أتاليا Attalia الساحلية بشق الأنفس. وهنا، تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة، التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق، من الإبحار إلى أنطاكية، بينما خلفوا وراءهم المرضى

والجرحى تحت رحمة من الخونة من حلفائهم الإغريق الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس، على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم. ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الإغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل، ورقبوا في صمت، ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم إلى معسكرهم. وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس؛ ولكن الترك، الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم، أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق. وكان يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس، لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم. فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء. بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية، التي ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم. فكان البون شاسعًا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة،

وضربوهم، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى إن كثيرًا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم. وكما يقول المؤرخ القديم: "لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك. آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز. ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قاموا لهم من خدمات".

وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرًا أخذ ينمو على مر الزمان، وهي ظاهرة تميز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تميزًا واضحًا جليًّا، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة للشرقيين في عاداتهم وأساليب حياتهم - إن ذلك كله لم يخفق في إيجاد تأثير متبادل في الأفكار الدينية. ومن أظهر ألوان هذا التأثير، ذلك المسلك السمح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية؛ وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة. ولما زار أسامة بن منقذ، وكان أحد أمراء الشام في القرن الثاني عشر، بيت المقدس، في فترة من فترات

الهدنة، خصص له فرسان المعبد The Knights Templar الذين كانوا احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به، ليقيم فيها الصلاة، واستاءوا استياء شديدًا من تدخل أحد الصليبين، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية. وكان يكون مثيرًا للدهشة حقًا، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل في المناسبات الكثيرة، حيث كان يلتقي الصليبيون بالمسلمين لقاءً ودياً أثناء المهادنات الكثيرة، لاسيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذي أتى بالصليبين إلى الأراضي المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة. بل إن علماء اللاهوت المسيحي، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطًا شخصيًا إلى تكوين رأي أكثر إنصافًا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديث أفكار الناس، وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام. وكان عدد المرتدين (عن المسيحية) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرًا كثرة نلاحظها في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها "مجالس قضاء بيت المقدس" Assises of Jerusalem والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة.

وقد لا يكون من الممتع أن نعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، ولكن يظهر

أنهم لم يخلفوا سجلاً بأعمالهم. على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه، كان على رأسهم، وهو الذي وصفه كتاب سيرته بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدي ضيفه المسيحي، وحثه على اعتناقه.

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًا خاصّاً حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية مثلاً فارس انجليزي من فرسان المعبد يدعى روبرت أوف سانت ألبانس Robert of st. Albans في سنة ١١٨٥ م، واعتنق الإسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين وبعد عامين، غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين، وكان جوى Guy ملك بيت المقدس بين الأسرى. وحدث مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه "قد حلت فيهم روح شريرة" وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم ويظهر أن صلاح الدين كان قد تفاهم في الوقت نفسه مع ريموند الثالث Raymound III كونت طرابلس الشام على أن يوعز إلى

أتباعـــه بـترك العقيـدة المـسيحية والتحـول إلى جانـب المسلمين ؛ "ولكن موت هذا الكونت المفاجئ قد وقف بصورة فعالة في سبيل هذه الخطة.

وقد حفز سقوط بيت المقدس والانتصارات التي أحرزها صلاح الدين في الأراضي المقدسة، أهل أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة، التي كان أهم أحداثها حصار عكا (١١٨٩- ١١٩١). وإن ما تعرض له الجيش المسيحي من آلام مروعة، من جوع ومرض، قد دفع الكثيرين منهم إلى الفرار والتماس ما يخلصهم من ألم الجوع في معسكر المسلمين. ومن هؤلاء الفارين كثيرون قد رجعوا مرة أخرى، بعد فترة من الزمن، إلى جيش الصليبيين ؛ ومنهم كثيرون آثروا أن يساهموا بنصيب مع المسلمين، فالتحق فريق منهم بخدمة أعدائهم السابقين، ولكنهم ظلوا على ولائهم للدين المسيحي، وقد (علمنا أنهم) كانوا راضين كل الرضا عن سادتهم الجدد، على حين اعتنق آخرون الإسلام وأصبحوا قوماً صالحين. وكذلك سجل المؤرخ، الذي رافق ريتشارد الأول في هذه الحرب الصليبية، تحول هؤلاء الفارين إلى الإسلام فقال: "وفريق من رجالنا (الذين لا نستطيع أن نتحدث عن مصيرهم أو نسمع عنه دون أن يحز في نفوسنا ألم مرير) قد استسلموا لقسوة المجاعة المرة،

فتجشموا في سبيل إنقاذ أبدانهم، هلاكاً أبدياً لأرواحهم. إذ أنه بعد انقضاء الجزء الأكبر من هذه المحنة نراهم يهجرون بني جلدتهم ويفرون إلى الأتراك فلم يترددوا في أن يصبحوا في زمرة المرتدين؛ ولكي يطيلوا أعمارهم الموقوتة زمناً قصيراً اشتروا موتاً أبدياً بهذا الكفر المفزع. أيتها المساومة الملعونة! أيتها الفعلة المخزية التي لا يكفر عنها أي عقاب! أيها الرجل الأحمق الذي يشبه البهائم البله، إنك إن فررت من الموت المحتوم الذي لا مفر من أي يأتي عاجلاً فلن تفر من الموت الأبدي".

ومنذ ذلك الحين لا نعدم أخباراً عن المرتدين عن المسيحية، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضي المقدسة وغيرها من بلاد المشرق، وإن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية (١٢٥٠ م) كانت من إملاء بعض المسلمين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الإسلام وبينما كانت عملية الفداء لا تزال جارية جاء مرتد آخر، وكان فرنسياً ولد ببروفنز وقدم هدية إلى الملك: وكان هذا الفرنسي قد صحب يوحنا ملك بيت المقدس في حملته على دمياط سنة ١٢١٩م، وبقي في مصر وتزوج بامرأة مسلمة وصار سيداً يشار إليه بالبنان في تلك البلاد. وكان خطر الدخول في

الإسلام، وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضي المقدسة، وقد شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش Amaury de la Roche رئيس فرسان المعبد the knights Templar التمس من البابا ونوابه في فرنسا، وصقلية، في "مذكرة" دونها حوالي سنة ١٢٦٦، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم. ويتحدث لودولف دي سوشم Ludolf de Suchem الذي تنقل في الأراضي المقدسة من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤١ عن ثلاثة من المرتدين وجدهم في حبرون وكانوا قد قدموا من أبرشية مندن Minden ودخلوا في خدمة فارس من فرسان وستفاليا، كان السلطان وغيره من أمراء المسلمين يكرمونه ويحترمونه.

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة، تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذي لم يصلنا عنه أي خبر كان على نطاق أوسع: فمن ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفاً من المرتدين عن المسيحية كانوا في مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر، ولابد أنه كان هنالك أيضاً كثيرون من هؤلاء المرتدين، في

مدن الأراضي المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية في الشرق. ولكن يظهر أن المسلمين الذين أرخوا هذه الفترة، قد بلغ من شدة انهماكهم في تسجيل مآثر الأمراء، وتقلبات الدول أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى التغيير الديني الذي طرأ على حياة الأفراد المغمورين؛ (وبقدر ما هدانا إليه البحث) فقد كانت ملاحظتهم في تتبع أخبار دخول المسيحيين في الإسلام، قليلة كقلة ملاحظتهم في دخول أبناء دينهم في المسيحية. فنحن مضطرون، نتيجة لذلك، أن نعتمد، في الوقوف على كل من هذين النوعين من الأحداث، على الكتاب المسيحيين، الذين نجد أنهم في الوقت الذي أمدونا فيه بأخبار مفصلة تنم على عطف المتنصرين، يحملون شهادة على عدم الرضا عن وجود أمثلة من الداخلين في الإسلام، ويصورون بواعث الذين ارتدوا عن دينهم ودخلوا في الإسلام في أحط صورة ممكنة. وربما لم يتسرب إلى ذهن الكاتب من هؤلاء الكتاب أن دخول أي مسيحي في الإسلام، عن اقتناع صادق، كان أمراً ممكناً. ولو فرضنا أن هذه الفكرة قد تسربت إلى أذهانهم، لكان من الصعب أن يجازفوا بتعريض أنفسهم لفظاعة العقاب الكهنوتي، بعرضه عرضاً صريحاً.

ومن الأمثلة التي تدل على أن تدوين ما يتعلق بمثل هذا التحول إلى الإسلام كان نادراً، هذه القصة التي أمدنا بها الفيرر همندورف Fürer von Haimendorf الذي كان في القاهرة سنة ١٥٦٥، عن إسلام عالم ألماني، تلقى دراسته بجامعة ليبزج Leipzig قال: "ولكن بينما كنا نمضي هذا الوقت في القاهرة حدث أن رجلاً يدعى يوستوس ستيفن الألماني، الذي ينتسب إلى هامليلنا Hamelensis والذي كان يقيم معنا في بيت واحد، قد أنكر الديانة المسيحية، وقدم نفسه لاعتناق الديانة الإسلامية وإجراء الختان. وكان رجلاً عالماً يقول لنا دائماً إنه درس طويلاً في وتبرج وليبزج، ولكنه لما سئل عن ذلك الأمر قال إنه الآن يملك روحاً خاصة، ليس في مقدوره أن يفعل أو يفكر بدون وحي منها. ولقد أثار جحود هذا الرجل تفكيرنا كثيراً، والحق أنه دفعنا إلى الفرار. وفي هذا اليوم نفسه طيف كذلك برجل يهودي في المدينة كان قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بأيام قليلة، في موكب من مواكب النصر. وقد أخبرنا بعض الإنكشارية أن هذا العمل ذاته سوف يحدث لستيفن نفسه".

ومن هذه المصادر التي أوردناها آنفاً معلومات قليلة تتعلق بعدد الذين تحولوا إلى الإسلام، وأخرى تتعلق بالجهود التي قامت لنشر

الدعوة والتي بذلت لحثهم على تغيير عقيدتهم. ومن البواعث التي طالما علل بها هؤلاء المؤرخون التحول إلى الإسلام، رغبة المسيحيين في التخلص من عقوبة الموت بالارتداد عن دينهم. وكثيراً ما ذكر الرحالة الأوربيون أمثال هذه الحالات. ومن هذا النوع مثال متأخر نختاره هنا، لجمال تصويره وحسن عبارته، من تقرير أحد أفراد الجزويت الذي كان في القاهرة سنة ١٦٢٧؛ فقد رأى رجلاً من القبط كان قد أسلم نفسه إلى ذلك التيار، "تارة بدافع العاطفة وتارة بقوة الغيرة الطائشة، فقتل أخاه حاقداً عليه أن ترك يسوع المسيح، على صورة من الجبن والتهرب، وراح يعتنق الإسلام تخلصاً من مضايقة الأتراك. وقبض على هذا المسكين في الحال وهو متلبساً بجريمته، واعترف في جراءة بأن هذا الكافر بدينه، الذي لا يستحق أن يكون أخ له، لم يستطع أن يمحو هذه الوصمة السوداء إلا بدمه. وقد ألح المسلمون عليه أن يترك دينه إبقاء على حياته"؛ ولكنه قرر أنه مصرّ على أن يموت مسيحياً، غير أن هذا العذاب، الذي صبه عليه أولئك الذين وُكل إليهم أمر تعذيبه، قد أوهن من عزمه فأذعن في اللحظة الأخيرة.

لقد حولته هذه الكارثة في لحظة من مؤمن إلى مرتد، ومن شهيد إلى كافر، ومن قديس إلى آثم، ومن ملاك إلى شيطان رجيم. فأقر

بالدين بل أقر بالغدر والخيانة على وفق أساليب المسلمين... فأطلقت له الحرية، لا حرية أبناء الرب، ولكن حرية الأبناء الخاسرين". ثم حمله تأنيب ضميره، آخر الأمر، على أن يرتد فقتله المسلمون.

لقد صور الراهب بركارد Purchard السكان المسيحيين عندما كتب حول عام ١٢٨٣م أي قبل أن يطرد الصليبيين من آخر معاقلهم، وقبل أن يزول النفوذ اللاتيني في الشرق نهائياً بسنوات قليلة، بأنهم يفوقون المسلمين عدداً في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأن نسبة عدد المسلمين (فيما عدا مصر وبلاد العرب) كانت لا تزيد على ثلاثة أو أربعة في المائة من جميع السكان. ولا شك أن هذه اللهجة مبالغ فيها، ومن المحقق أن الراهب الطيب قد اندفع فيما زعمه بظنه أن ما شاهده في الصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ينطبق تمام الانطباق على سائر جهات الشرق. على أن من الجائز أن نتخذ كلماته هذه في الواقع، دليلاً على أن التحول إلى الإسلام لم يكن في عهد الصليبيين حركة واسعة النطاق، وأن المسلمين حينما استردوا سلطانهم على الأراضي المقدسة، بسطوا على المسيحيين نفس روح التسامح التي كانت من قبل، وذلك بأن جعلوهم "يشترون السكينة والسلام" بأداء الجزية. وهذا يحمل على الظن بأن ما حدث من التحول إلى الإسلام إنما كان عبارة عن حالات فردية من المسيحيين

الـذين أشـربوا العقيـدة الإسـلامية في أذهـانهم قبـل أن يقـدموا علـى الخطـوة الأخـيرة. وقـد أوردنـا مـن قبـل أمثلـة مـن المـسيحيين الـذين دخلـوا في خدمـة سـادتهم مـن المسلمين وتمتعـوا بحـريتهم الدينيـة إلى أبعد حد، وقد ميزت مجالس قضاء بيت المقدس Assises of Jerusalem بين "هؤلاء الذين كفروا بالله وأتبعوا شريعة أخـرى" و "بـين جميـع الـذين قـاموا بخدمات عـسكرية للعـرب وغيرهـم مـن الأشرار، يناوئون بها المسيحيين مدة أكثر من عام يوم"

ومن المؤكد أن المسيحيين مـن أهـالي هـذه الـبلاد قـد أثـروا حكـم المـسلمين علـى حكـم الـصليبيين. ويظهـر أن أهـالي فلـسطين مـن المـسيحيين، لمـا وقـع بيـت المقـدس في أيـدي المـسلمين نهائيـاً (سـنة ١٢٤٤م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم.

كـذلك دفـع هـذا الـشعور نفـسه، شـعور الاطمئنـان إلى الحيـاة الدينية في ظل الحكم الإسلامي، كثيراً من مسيحيي آسيا الـصغرى، في إبـان هـذه الفـترة ذاتهـا إلى الترحيـب بمقـدم الأتـراك الـسلاجقة، باعتبارهم مخلصين لهـم مـن الحكومـة البيزنطيـة البغيـضة، لا بـسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكـن بـسبب روح الاضـطهاد الـتي ظهرت بها الكنيسة الإغريقية، والتي قمعت بمثل هذه القسوة، بـدع أصحاب بولس ومحطمي الصور والتماثيل Iceenclasts كـذلك.

وطالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرى، تخلصاً من استبداد الدولة، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية.

الكنائس الأرمينية والجورجية: بقي لدينا بعض معلومات نوردها هنا عن كنيستين أخريين من كنائس آسيا الغربية، ونعني بهما كنيسة أرمينية وكنيسة جورجيا. أما كنيسة أرمينية فإن من الممكن أن يقال عنها أن ما قدمه أفرادها في سبيل زيادة عدد الداخلين في الإسلام ربما كان أقل (وهذا بالنسبة إلى عدد أفراد الطائفة) مما قدمته أية كنيسة من الكنائس الشرقية التي خضعت للحكم الإسلامي. وعلى الرغم من الأهمية التي تتعلق بقصة كفاح هذا الشعب الباسل للمطامع الطاغية، وقصة تفانيه في الدين المسيحي – خلال قرون الحروب والمظالم والتنكيل والتشريد – فليس الغرض من هذا الكتاب أن نذكر أكثر من أن نبين بإيجاز مدى ارتباط هذا الشعب بتاريخ المسلمين. لقد ظلت مملكة أرمينية قائمة بعد أن منيت بصدمة الفتح العربي، ونهضت في القرن التاسع الميلادي فأصبحت دولة على جانب من الأهمية ثم ازدهرت أثناء اضمحلال خلافة بغداد، ولكن الأتراك السلاجقة أدالوها في القرن

الحادي عشر. وقد أسس جماعة من الهاربين مملكة أرمينية الصغرى Lesser Armenia ، ولكن هذه المملكة ذهبت كذلك في القرن الرابع عشر، وظلت حياة أهل أرمينية القومية باقية بالرغم من ضياع استقلالهم. وكان دينهم وكنيستهم الوطنية مبعثاً لحماستهم ووطنيتهم التي لا تفنى، كما كان الحال في اليونان في عهد الأتراك. ومع أن بعضهم دخل في الإسلام بتأثير اضطهاد عنيف، إلا أن غالبية الشعب ما زالت مخلصة لعقيدتها القديمة. ويلاحظ تافرنييه ملاحظة غير مشربة بروح المودة العطف، فيقول: "قد تكون هناك قلة من الأرمينيين اعتنقت الإسلام لنفع دنيوي ولكنهم بوجه عام يعدون أشد الناس عناداً وأصلبهم تمسكاً بمعتقداتهم الخرافية".

أما كنيسة جورجيا (التي أسست في مستهل القرن الرابع) فكانت فرعاً من الكنيسة الإغريقية التي ظلت في ترابط معها، بالرغم من أن البطريق أوجاثليق كنيسة جورجيا قد أعلن استقلاله منذ منتصف القرن السادس. وأن تاريخ هذا الشعب المحارب الباسل الذي مزقته الخصومات الداخلية وتعرض لهجمات متتابعة، من الإغريق والفرس والعرب والترك والمغول، لهو تاريخ حروب لا تكاد تنقطع، وجهت نحو خصومهم من الأجانب ومنازعات متضاربة

تقوم بصورة وحشية بين زعماء هذه البلاد: وحسبنا أن نلقي نظرة على العهود التي حكم فيها واحد أو اثنان من الحكام الأقوياء، الذين هيئوا لرعاياهم فترات قصيرة من الأمن والسلام، لنتبين ذلك البون الشاسع بين هذه العهود وبين حالة القلق والاضطراب التي كانت تسود هذه البلاد. وكثيراً ما أثارت تلك الروح الاستقلالية العنيفة، التي يمتاز بها أهالي جورجيا، والتي لا تطيق الحكم الأجنبي، سخط جيرانهم من المسلمين على صورة أشبه شيء بالجنون، حين أخفق هؤلاء في أن يفرضوا عليهم شيئاً من ديانتهم أو سلطتهم الزمنية. وأن هذا السبب — وهو أن تغيير العقيدة ينطوي على فقدان الاستقلال السياسي — هو الذي يفسر لنا إلى حد بعيد ما صنعته كنيسة جورجيا من تسجيل أسماء مثل هذا العدد الكبير من شهدائها، على حين لا نجد في تواريخ الكنيسة الإغريقية في هذه الفترة نفسها ما تعرضه من مثل قوائم التشريف والتكريم هذه.

ولم تأخذ المسيحية في الاضمحلال (في جورجيا) إلا بعد أن اجتاحها جنود المغول المدمرة، فتركت وراءها كنائس محطمة وأديار مهدمة وأكداساً من الرؤوس البشرية تشهد على مدى تقدم جحافلهم المخربة. وكان من أثر ذلك أن ظل الشعب وقتاً طويلاً خلواً ممن يمده بمطالبة الروحية، نظراً إلى ما أصاب عددهم وما

تعرضت له ثقافة رجال الكنيسة من تأخر. حتى هؤلاء الذين ظلوا يدينون بالمسيحية، فقد زاد فريق منهم في متاعب رجال الكنيسة بسلب أملاكها، واستغلال موارد الكنائس والأديار لمصلحتهم الشخصية، وبذلك عجلوا بالدين المسيحي إلى الضعف والانحلال.

وفي سنة ١٤٠٠ أضافت غزوة تيمور فزعاً بالغاً إلى متاعب جورجيا، ومع أن حكم اسكندر الأول (١٤١٤ – ١٤٤٢) قد خلص البلاد، فترة قصيرة من نير الأجنبي، وطرد المسلمين جميعاً، إلا أن البلاد قد انقسمت بعد وفاته مرة أخرى إلى عدد من الأمارات الصغيرة التي انتزع منها الأتراك والفرس آخر ما بقي من استقلالها. ولكن المسلمين طالما وجدوا من جورجيا أيالة تسودها الفوضى والتمرد، وتتأهب دائماً لإشعال نار الثورة لأتفه الأسباب. فسعى الأتراك والفرس لكسب ولاء الرعايا، الذين يثيرون المتاعب والقلاقل، عن طريق تحويلهم إلى الإسلام. وقد أسلم بعد سقوط القسطنطينية وازدياد النفوذ التركي في آسيا الصغرى، أهالي أخالتسيخيه Akhaltsikhé ومقاطعات أخرى تقع غربيها. وفي سنة ١٥٧٩ وفد أميران من جورجيا – وكانا أخوين – في بعثة إلى القسطنطينية، تصحبهما حاشية كبيرة تتألف من نحو مائتي شخص: وهنا أسلم الأخ الصغير وأسلمت حاشيته معه أملاً (كما

قيل) في أن يحل محل أخيه الأكبر، وقد ضمت فتوح الأتراك إلى حوزتهم، بعد هذا العصر بزمن طويل بعض المقاطعات الواقعة في قلب جورجيا التي أعتنق أهلوها ديانة الفاتحين. ومنذ ذلك الوقت اعترفت Samtzkhé، أقصى أجزاء جورجيا من جهة الغرب، بسيادة تركيا: فأتيح لحكامها وشعبها أن يظلوا على عقيدتهم المسيحية، لا يتعرض لهم أحد بسوء، إلا أنه منذ سنة ١٦٢٥ اعتنق البيت الحاكم الإسلام وحذا حذوه كثير من الزعماء الأشراف.

وظلت المسيحية بعد ذلك محتفظة بسلطانها على الفلاحين وقتاً طويلاً، ولكن حين أبى رجال الكنيسة، في إقليم سامتسخي، أن يعلنوا ولائهم لجاثليق كارثلي Karthli انقطع إرسال المدد الذي كان يسد حاجات الشعب الروحية بصورة منتظمة. وكان الأشراف حتى قبيل إسلامهم قد درجوا على اغتصاب ضياع الكنيسة، ثم بطبيعة الحال توقفوا بعد إسلامهم عن مساعدتها بعطاياهم، وكان طبيعياً أن تحل المساجد محل الكنائس والأديار التي حل بها الخراب.

وخضع سائر أجزاء جورجيا لفارس، وعندما زار تافرنييه هذا الجزء من البلاد، في أواسط القرن السابع عشر، وجده منقسماً إلى مملكتين كانتا تابعتين للدولة الفارسية، يحكمها أمراء من أهالي جورجيا، وكان عليهم أن يدخلوا الإسلام قبل التقدم لشغل هذا

المنصب. وكان من هؤلاء الأمراء السابقين إلى الحكم قسطنطين تساريفتش C. Tsarevitch بن اسكندر الثاني ملك كاخث Kakheth ، وكان قد تربى في البلاط الفارسي ، حيث اعتنق الإسلام في بداية القرن السابع عشر. كذلك تربى في فارس الملك تساريفتش رستم (١٦٣٤ – ١٥٦٨م) وهو أول ملوك كارثلى Karthli من المسلمين ، وكان هو وجميع من خلفوه حتى نهاية ذلك القرن من المسلمين.

ويصف تافرنييه أهل جورجيا بأنهم على جانب كبير من الجهل بالشئون الدينية ، كما يصف رجال الكنيسة بأنهم أميون وأصحاب رذيلة. وقد حدث أن باع فريق من رؤساء الكنيسة فتيات وصبياناً من المسيحيين بيع الرقيق للأتراك والفرس. ويظهر أنه قامت منذ ذلك الحين ، حركة ارتداد عن المسيحية واسعة النطاق وخاصة بين الطبقات العليا وبين هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى اكتساب عطف البلاط الفارسي. وفي سنة ١٠٧١م كان واختنج السادس vI Wakhtang الذي جلس على عرش جورجيا مسيحياً. وظل طوال السنين السبع الأولى من حكمه سجيناً في أصبهان ، حيث بذلت جهود ضخمة لحمله على الإسلام ، وقد قيل أنه عندما صرح بأنه يؤثر ضياع عرضه على أن يشتريه بالارتداد عن دينه ، عرض

أخوه الأصغر، مع أنه كان يشغل منصب بطريق جورجيا، أن يترك المسيحية ويعتنق الإسلام إذا أنعم المسلمون عليه بالتاج، ولكنه بالرغم من أن الفرس قد منحوه السلطة الملكية، رفض أهل جورجيا قبوله حاكماً عليهم وطردوه من المملكة.

وحول نهاية القرن الثامن عشر وضع ملك جورجيا شعبه تحت حماية التاج الروسي وإلى تلك اللحظة كان شعورهم الوطني الفياض قد ساعد على الاحتفاظ بالعقيدة المسيحية حية بينهم طالما كان الغزاة الغرباء من المسلمين. أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية، فقد ساعد هذا الشعور نفسه على خدمة الإسلام في بعض المقاطعات الواقعة شمالي القوقاز. وفي داغستان حاول شخص يدعى درويش منصور أن يجمع شمل قبائل القوقاز المختلفة لمناهضة الروس. وبث دعوته إلى الإسلام وأفلح في تحويل أمراء يوبخستان وداغستان وأشرافهما الذين ظلوا على ولائهم للإسلام منذ ذلك الحين. وكذلك دخل بدعوته، كثيرون من الجراكسة في الإسلام وفضلوا أن ينفوا من البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسي. ولكنه أسر في سنة ١٧٩١م، ثم دخلت جورجيا رسمياً في حوزة الإمبراطورية الروسية عام ١٨٠٠م.

ولم يكن درويش منصور هو الوحيد الذي قام بجهود في سبيل إدخال الجراكسة في الإسلام. فعندما اعترفت معاهدة كوتشاك فينرجى Kuchak Kainarji سنة ١٧٤٤ باستقلال القرم، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية، استولى الفزع على الحكومة التركية من أن تطمع روسيا فتقوم بحركة أخرى للسيطرة على طول الساحل الشرقي للبحر الأسود. وعقدت النية على أن تحاول تحريض الجراكسة على المقاومة. فأرسلت ضابطاً يدعى فرح علي سنة ١٧٨٢م لتأسيس مستعمرة حربية في أنابا، بالقرب من منفذ بحر أزوف والدخول في صلات مع قبائل الشراكسة. وكان أول ما وجه إليه فرح علي عنايته أن خطب ابنة أحد البكوات الجراكسة، وقدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وغيرها؛ وقد احتفل بالزواج في موكب فخم واحتفال عظيم. وشجع فرح علي جنوده على أن يحذوا حذوه فوعدهم القيام بنفقات زواجهم. وكان من أثر ذلك أن انضم فريق من النساء الجركسيات، إلى المستعمرة الصغيرة واعتنقن ديانة أزواجهن، وجذبن آبائهن وأخواتهن إلى الإسلام، بفضل روح الحماسة التي تميز بها الجدد في الإسلام. وابتدأت حركة نشيطة في نشر الدعوة إلى الإسلام، ويظهر أن الذين انحازوا إلى المستعمرة التركية من الجراكسة، كانوا قد أظهروا استعداداً عندما

تركوا معتقداتهم الوثنية في سبيل الدين الذي نزل به القرآن. وقد عكف العلماء (الملاوات) على تفقيه حديثي العهد بالإسلام ولم يكن بد من أن يطلبوا مددًا من القسطنطينية لتثقيف جموع الداخلين في الإسلام، الذين كان عددهم يزداد شيئًا فشيئًا.

ولكن نشاط فرح علي لم يدم طويلاً؛ فقد توفي سنة ١٧٨٥، وكان قبره مثابة احترام وتوقير كما كانت قبور القديسين، غير أن جهوده قد زالت بموته. فقد انتقلت أنابا إلى أيدي الروس سنة ١٨١٢م، وعندما تغلبوا على مقاومة الجراكسة بصفة نهائية سنة ١٨٦٤ هاجر أكثر من نصف مليون من الجراكسة المسلمين إلى الأراضي التركية.

وكان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، أمرًا محرمًا في القانون الروسي، ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥. ومن النتائج التي ترتبت على صدور هذا المرسوم، في بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام من بين طوائف الأبخاز Abkhazes الذين كانوا قد ظلوا طويلاً يدينون بالمسيحية اسماً فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مسلمين، في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة

الأرثوذكسية قــد أخــذ الخــوف منهــم كـل مأخـذ حتـى أقـاموا جمعية خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي.

الفصل الثالث

بعد أن استعرضنا جانباً من فكر البروفيسور توماس أرنولد، هذا العالم الإنجليزي المرموق حول نظرته ونتائج بحثه في شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفي الإسلام، وسماحته ومنهجه، العظيم بما تضمنه من عدل ومساواة في عصور كانت تعكس هجير الظلم والجور بين الإنسانية، والتي تبدت في أوضح معالمها ومظاهرها في الوثنية وعبادة الأوثان بكل أشكالها وصورها سوف أعرج هنا على أطروحة المفكر الإسلامي الكبير علي عزت بيجوفيتش، وهي أطروحة كتبها في الستينيات من القرن الماضي، حين كان يقبع في زنزانته بسجون يوغوسلافيا الشيوعية التي كانت تحت زعامة جوزيف بروزتيتو الرئيس الشيوعي الشهير، وهذه الأطروحة العظيمة والرائعة التي تخاطب العقل بالأساس وكما ذكر المفكر بيجوفيتش كانت موجهة إلى غير المسلمين وتحديدا المجتمعات الأوروبية بكل تلاوينها الفلسفية والدينية غير الإسلامية. وتناول فيها مثلا تحت عنوان "نظرات حول الدين" موضوعات أساسية في الفكر الإنساني كالخلق والتطور والثقافة والحضارة والفن والأخلاق

والتاريخ والدراما واليوتوبيا. وهنا سأورد ما قاله بيجوفيتش حول موضوع أطروحته الشيقة فيقول:

(يتميز العالم الحديث بصدام أيديولوجي نحن جميعاً متورطون فيه سواء كمساهمين أو ضحايا فما هو موقف الإسلام من هذا الصدام الهائل؟ وهل للإسلام دور في تشكيل هذا العالم الحاضر في هذا الكتاب يجيب جزئيا على هذا السؤال:

هناك فقط ثلاث وجهات نظر متكاملة عن العالم هي النظرة الدينية والنظرة المادية والنظرة الإسلامية وهذه الوجهات الثلاث من النظر، تعكس ثلاث امكانات مبدئية هي (الضمير – الطبيعة – الإنسان) تتمثل كل منها على التوالي في (المسيحية والمادية والإسلام)، وسنجد أن جميع الأيديولوجيات والفلسفات والتعاليم العقائدية من أقدم العصور إلى اليوم في التحليل النهائي يمكن إرجاعها إلى واحدة من هذه النظرات الثلاث العالمية الأساسية.

تأخذ الأولى نقطة بدايتها وجود الروح والثانية وجود المادة والثالثة الوجود المتزامن للروح والمادة معاً. فلو كانت المادة وحدها هي الموجودة فإن الفلسفة التي تترتب على ذلك هي الفلسفة المادية وعلى عكس ذلك إذا وجدت الروح فالإنسان بالتالي يكون موجودا أيضا وحياة الإنسان تصبح بلا معنى بغير نوع من الدين

والأخلاق. والإسلام هو الاسم الذي يطلق على الوحدة بين الروح والمادة وهي الصيغة الأسمى للإنسان نفسه.

ويوضح بيجوفيتش أن مصطلح دين في كتابه يشير إلى معنى محدد، وهو المعنى الذي تنسبه أوروبا إلى "الدين"وتفهمه على هذا النحو وهو أن الدين تجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله وهي علاقة تعبر عن نفسها فقط في عقائد وشعائر يؤديها الفرد وعليه فلا يمكن تصنيف الإسلام كدين بهذا المعنى فالإسلام أكثر من دين لأنه يحتوي الحياة كلها.

ويقول بيجوفيتش في معرض طرحه:

إن الحياة الإنسانية تكتمل فقط عندما تشتمل على كل من الرغبات الحسية والأشواق الروحية للكائن البشري وترجع كل الإخفاقات الإنسانية لإنكار الدين للاحتياجات البيولوجية للإنسان أو لأفكار المذهب المادي لتطلعات الإنسان الروحية.

لقد قال آباؤنا الأوائل بوجود شيئين، العقل والمادة، وبناء على ذلك فهموا وجود عنصرين، نظامين عالمين من أصلين مختلفين ومن طبيعتين مختلفتين لم يصدر أحدهما عن الآخر ولا يمكن اختزال احدهما في الآخر حتى أعظم العبقريات في العالم لم تستطع أن تتجنب هذا التمييز مهما اختلف مدخلها. ونستطيع أن نتخيل أن

هذين العالمين منفصلان زمنيا. أي عالمان متتابعان زمنيا (الحاضر والتالي) أو كعالمين متزامنين ولكنهما مختلفان في الطبيعة والمعنى وهذا أقرب إلى الحقيقة.

والأزدواجية هي ألصق المشاعر بالإنسان، ولكن ليس بالضرورة أعظم فلسفة إنسانية على العكس من ذلك كانت كل الفلسفات الكبرى واحدية النزعة، فقد يكتشف الإنسان خلال خبرته ازدواجية العالم، ولكن الواحدية كامنة في صميم كل فكر إنساني، فالفلسفة لا تقر الإزدواجية ومع ذلك فلا أهمية لما تقره الفلسفة أو لا تقره، لأن الحياة وهي أسمى من الفكر لا يجب أن يحكم عليها الفكر، وحيث أننا بشر فإننا نحيا واقعين وقد نستطيع أن نفكر هذين العالمين ولكننا لا نستطيع الفكاك منهما، فالحياة لا تتوقف على فهمنا لها.

ولذلك فالسؤال ليس هو ما إذا كنا نحيا حياتين، وإنما هو إذا كنا نفعل ذلك فاهمين لحقيقته. ففي هذا يكمن المعنى النهائي للإسلام إن الحياة مزدوجة وقد أصبح من المستحيل عمليا أن يحيا الإنسان حياة واحدة منذ اللحظة التي توقف فيها أن يكون نباتاً أو حيواناً منذ لحظة ان (قالوا بلى).

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) صدق الله العظيم.

عندما نشأت المعايير الأخلاقية أو عندما ألقي بالإنسان في هذا العالم إننا لا نملك دليلا عقليا على وجود عالم آخر، ولكن لدينا ذلك الشعور والواضح أن الإنسان ليس موجودا فقط لكي ينتج ويستهلك، إن العلماء والمفكرين الذين يكدحون سعياً وراء الحقيقة لا تتمثل لهم الحياة السامية في مجرد التفكير بل إن حياتهم التي أنفقوها في البحث عن الحقيقة هي أعلى شكل من أشكال الوجود الإنساني، إن الخطين من التفكير اللذين نوقشا في تاريخ الإنسانية متوازيان ومن السهل تمييزهما وبالرغم من تصادمهما المستمر فقد بقيا حتى اليوم لا يكشفان عن أي تقدم جوهري.

ويبدأ الخط الأول من أفلاطون ويمتد حتى المفكرين المسيحيين في العصور الوسطى يتبعهم الغزالي ثم "ديكارت" ومالبرانش" و"لينتز" و"بركلي" و"فيختـه" و"كـدورث" و"كانـت" و"هيجـل" و"مـاخ" و"برجسون" في العصر الحديث.

أمـــا الخـــط المـــادي فيتمثـــل في "طـــاليس" و"انكـــشهدريس" و"هـــرقليطس" و"لـــوكريتس" و"هـــوبز" و"جاســـندي" و"هلفتيـــوس" و"هولباخ" و"ديدرو" و"سبنسر" و"ماركس".

وفي مجال الأهداف الإنسانية العملية يقف هذان التياران في الفكر الإنـساني علـى طـرفي نقـيض. يمثـل التيـار الأول المـذهب الإنـساني ويمثل التيار الثاني التقدم، وإن الـدين كمـا هـو في المفهـوم الغربـي لا يؤدي إلى التقدم والعلم لا يؤدي إلى الإنسانية.

على أي حال لا يوجد في الواقع دين خالص ولا علم خـالص ، مثلا لا يوجد دين بلا عناصر علمية فيه ولا يوجـد علـم بـلا عناصـر من أمـل دينـي فيـه وهـذه الحقيقـة خلقـت مزيجاً يـصعب فيـه أن تجـد الأصل الصحيح أو المكان الـصحيح لفكـرة مـا أو اتجـاه مـا. ونحـن إذ نناقش الفكرتين فإننا نستهدف الوصـول إلى شـكليهما الـصافيين مـع نتائجهما النهائية المنطقية بـل الغامـضة أحيانـا وسـنجد أنهمـا نظامـان منطقيان من الداخل ومغلقان على نفسيهما. ولكن بالنسبة لكثير منـا ستبدو الـصورة مفاجئـة حيـث أن كـلا منهمـا نفـس الآخـر كأنهمـا فسيفساء بها مواضع خالية يمكن ملؤهـا باسـتخدام الجـدل المعكـوس ففي حين تدعي المادية أن العوامل الموضوعية "مستقلة عـن الإنـسان" هـي المحركـات الأساسـية للأحـداث التاريخيـة ، علينـا أن نتوقـع في

المرحلة الثانية من مراحل عملية الديالكيتك فكرة مضادة تماماً لهذه الفكرة، وبالفعل ظهرت بعد بحث قليل فكرة التفسير البطولي للتاريخ كما هو الحال عند "كارليل" الذي يذهب إلى أن جميع الأحداث التاريخية يمكن تفسيرها من خلال تأثير شخصيات قوية.

أولئك هم العباقرة. وهكذا يتعارض الماديون بعضهم مع بعض، فمنهم من يقول "ان التاريخ لا يسير على رأسه" وآخرون يقولون العكس تماما "العباقرة يصغون التاريخ"، وكما في المثال السابق نجد أن المادية التاريخية ضد الفردية المسيحية وبالمنطق نفسر "الخلق ضد التطور" "المثل العليا ضد المصلحة"، "الحرية ضد التماثل"، "الفردية ضد المجتمع" وهكذا.

إن دعوة الدين لتحطيم الشهوات يقابلها على الطرف الآخر ما يوازيها في مبدأ الحضارة القائل "أخلق دائما شهوات جديدة"، ويستطرد بيجوفيتش قائلا:

"إن النتيجة وإن لم تكن مكتملة يمكن أن ترينا أن الدين والمادية هما الفكرتان الأوليان في العالم الذي لا يمكن تجزئتهما إلى ما هو أصغر منهما ولا تمتزج إحداهما بالأخرى وفي هذا السياق نستعير من القرآن الكريم هذه الآية الكريمة (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ❖ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ).

إنه من المستحيل أن تجد حجة منطقية تجادل بها أيا من هاتين الفكرتين العالميتين فكل واحدة منهما في ذاتها نظام منطقي وليس هناك منطق أعلى منهما للحكم عليهما ولا يوجد من حيث المبدأ والخبـــرة اسمى منهمـــا ســـوى الحياة الإنسانية نفسها فأن تحيى وفوق كل شيء أن تحيى حيـــاة كاملـــة خيرة هو أمر أكثر من أي ديـن وأكثر مـن أي اشـتراكية ، إن المـسيحية تمنح الخلاص ولكنه خلاص داخلي فقط.

أما الاشتراكية فإنها تقدم خلاصاً خارجياً فقط ونحن بإزاء هذين العالمين المتوازيين اللذين يتصادم منطقهما تصادماً لا علاج له ، نشعر في قرارة أنفسنا بأن علينا أن نتقبلهما معاً في محاولة للبحث عن توازن طبيعي جديد لهما فالتعاليم المتعارضة لهما تفصم عرى الحياة وتشطر الحقيقة كما تشطر مصير الإنسان نفسه فيما بينهما.

هناك بعض الحقائق الأساسية يأخذها كل إنسان بعين الاعتبار في هذه الحياة بصرف النظر عن الفلسفة التي ينتمي إليها ، وقد تعلم الإنسان هذا من خلال الحس المشترك أو من خلال نجاحاته وإخفاقاته ، هذه الحقائق تشتمل على (الأسرة – الأمن المادي – السعادة – الاستقامة – الصدق – الصحة – التعليم – الحرية – المصلحة – القوة – المسؤولية.. الخ).

فإذا نحن ذهبنا نحلل هذه الحقائق نجد أنها تتجمع حول محور واحد وتشكل في مجموعها نظاماً عملياً قد لا يكون متجانساً وغير كامل ولكنه يستدعي إلى ذاكرتنا حقائق الإسلام.

إن الاختلافات بين التعاليم الأساسية لكل من الاتجاهين السالفي الذكر تبدو وكأنه لا يمكن تجاوزها ولكنها هكذا فقط من الناحية النظرية أما في واقع الحياة العملية فالأمر مختلف فما كانوا يحاربونه بالأمس يوافقون عليه اليوم وإنما تبقى بعض الأفكار العزيزة مجرد زينة يزخرفون بها النظرية.

لقد رفضت الماركسية الأسرة والدولة أما من الناحية العملية فقط احتفظت بهاتين المؤسستين وكل دين مجرد ينبذ اشتغال الإنسان بدنياه.

ولكن لأن الدين عقيدة أناس أحياء فقد قبل النضال من أجل العدالة والكفاح في سبل عالم أفضل. كان على الماركسية أن تقبل درجة من الحرية الفردية وأن يتقبل الدين استعمال شيء من القوة إذ يبدو واضحاً أن الإنسان وهو يمارس حياته الواقعية لا يمكن أن يعيش وفقاً لفلسفة ثابتة والسؤال هو:

هل يمكن أن يجدا مخرجاً للبقاء على ما هما عليه؟ .. الواقع العملي يقول شيئاً آخر فإنهما لكي يتواءما مع الحياة العملية يستعير

كل منهما من الآخر، فالمسيحية التي تحولت إلى كنيسة شرعت تتحدث عن العمل وعن الثروة والتعليم والعلم والزواج والقوانين والعدالة الاجتماعية إلى غير ذلك من أمور الحياة المادية وعلى الطرف الآخر نجد المادية وقد تحولت إلى اشتراكية أو نظام أو دولة بدأت تتحدث عن الإنسانية وعن الأخلاق والفنون والإبداء والعدل والمسؤولية والحرية.. الخ.

فبدلا من العقائد المجردة قدمت النيا تأويلات هذه العقائد للاستخدام اليومي واستمر تشويه كل من الدين والمذهب المادي يجري طبقاً لقانون ما.

وفي كلا الحالتين كانت المشكلة واحدة. كيف يمكن لشيء يمثل جانباً واحداً من جوانب الحياة أن يطبق على الحياة الواقعية بأسرها وهي أكثر منه تعقيداً؟

من الناحية النظرية يمكن للإنسان أن يكون مسيحيا أو مادياً فهو متطرف بشكل أو بآخر ولكن الأمور في الواقع لا تسير على هذا النحو الثابت لا بالنسبة للمسيحي ولا بالنسبة للمادية والطوباويات الجديدة في الصين وكوريا الشمالية وفيتنام تعتبر نفسها أكثر الأشكال ثباتا مع التعاليم الماركسية والحقيقة أن هذه الطوباويات تعتبر أمثلة جيدة للحلول الوسطى ولعدم الثبات من الناحية العملية

فبدلاً من أن تسمح لنفسها بوقت يكفي لصياغة معايير تعكس العلاقات الجديدة في القاعدة الاقتصادية. أخذت ببساطة المعايير الأخلاقية التقليدية السائدة وبخاصة اثنان منهما وهما: التواضع واحترام كبار السن وهكذا وجدنا الماركسية المتطرفة تستعير المبدأين السائدين نفسيهما في الديانة القائمة ويعترف مؤلفو النظام بهذه الحقيقة رغماً عنهم ولكن تبقى الحقائق كما هي بصرف النظر عن اعترافنا بها.

وفي بعض الدول الاشتراكية يكافأ على اتقان العمل بحوافز معنوية غير الحوافز المادية مع أن الحوافز المعنوية لا يمكن تفسيرها في إطار الفلسفة المادية والأمر نفسه ينطبق على دعوات: الإنسانية والعدالة والمساواة والحرية وحقوق الإنسان وهلم جرا، فهذه الدعوات جميعها مصدرها الدين لكن مما لا شك فيه أن كل إنسان له الحق في أن يعيش بالطريقة التي يرى أنها أفضل له بما في ذلك حقه ألا يكون متسقاً مع فكره الخاص ولكي نفهم العالم فهما صحيحاً من المهم أن نعرف المصدر الحقيقي للأفكار التي تحكم هذا العالم وأن نفهم معانيها. ففي بحث من هذا النوع الذي نحن بصدده تكمن مخاطر مختلفة تتمثل فيما يسمونه بـ"الأشياء الواضحة بذاتها" والأفكار التي تلقي قبولاً عاماً. إن الشمس لا تدور حول الأرض

رغم أن ما يبدو لناظرنا هو كذلك.. والحوت ليس سمكا بصرف النظر عن الاعتقاد السائد بين أكثر الناس أنه كذلك. إن الاشتراكية والحرية لا تلتقيان رغم كل محاولات الإقناع بغير ذلك وإنه رغم التشويش السائد تبقى الأفكار كما هي تؤثر على العالم ليس بمقتضى معانيها وطبائعها الموقوتة ولكن طبقا لمعانيها الأصلية وطبائعها الحقيقية.

ها نحن نقترب من تعريف الإسلام بطريقة مختلفة عن المألوف ، فمع الاحتفاظ بالنقطة الأساسية في أذهاننا يمكننا أن نقول إن الإسلام يعني أن نفهم وأن نعترف بالازدواجية المبدئية للعالم ثم نتغلب على هذه الازدواجية.

إن صيغة الوصف المتمثلة في كلمة "إسلامي" كما نستخدمها في هذا الكتاب ليس فقط لكي نصف القواعد التي تعرف عادة بأنها هي الإسلام ولكن أيضا لتحديد المبادئ الأساسية التي تنطوي عليها. بهذا يكون الإسلام تسمية لمنهج أكثر من كونه حلاً جاهزاً ويعني المركب الذي يؤلف بين المبادئ المتعارضة. هذا المبدأ الأساس في الإسلام يذكرنا بالنمط الذي خلقت على منواله الحياة فالإلهام الذي ربط بين حرية العقل وحتمية الطبيعة كما يظهران في الحياة يبدو أنه هو الإلهام نفسه الذي ربط بين الوضوء والصلاة في وحدة

تسمى الصلاة الإسلامية. إن حدسا فائق القوة يمكنه أن يبني الإسلام بأكمله من خلال تأمله في الصلاة ويستطيع من تأمله في الإسلام أن يقيم الازدواجية التي تشمل هذا الكون ولم تستطع أوروبا أن تصل إلى طريق وسط (رغم محاولة إنجلترا أن تكون استثناء في هذا المجال)، ولذلك من غير الممكن التعبير عن الإسلام باستخدام المصطلحات الأوروبية. فالمصطلحات الإسلامية مثل (صلاة وزكاة وخليفة وجماعة ووضوء وغير ذلك من المصطلحات) لا يوجد ما يقابلها في المعنى في اللغات الأوروبية إن تعريف الإسلام بأنه مركب يؤلف بين الدين والمادية وأنه يقف موقفاً وسطاً بين المسيحية والاشتراكية هو تعريف تقريبي يمكن قبوله تحت شروط معينه إنه تعريف صحيح بشكل ما ولكن من بعض الوجوه وليس جميعها فالإسلام ليس وسطاً حسابياً بسيطاً ولا قاسماً مشتركاً بين تعاليم هاتين العقيدتين. فالصلاة والزكاة والوضوء كينونات لا تقبل التجزئة لأنها تعبير عن شعور فطري بسيط، إنها يقين معبر عنه بكلمة واحدة وبصورة واحدة فقط، ولكنها مع ذلك تظل منطقياً تمثل دلالة ازدواجية والتماثل هنا مع الإنسان واضح فالإنسان هو مقياسها ومفسرها.

ثم يورد بيجوفيتش الآية ٣٠ من سورة الروم التي تتحدث عن هذا مباشرة (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).

يشيع بعض الناس الذين يقرأون القرآن بعقلية نقدية تحليلية انطباع بأن القرآن من الناحية الموضوعية لا يبيح نظاماً محدداً ويبدو وكأنه مركب من عناصر متناثرة ولكن لابد أن يكون مفهوماً بادئ ذي بدء أن القرآن ليس كتاباً أدبيا وإنما هو حياة والإسلام نفسه طريقة حياة أكثر من كونه طريقة في التفكير، إن التعليق الوحيد الأصيل على القرآن هو القول بأنه "حياة"، وكما نعلم كانت هذه الحياة في نموذجها المجسد هي حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إن الإسلام في صيغته المكتوبة (أعني القرآن) قد يبدو بغير نظام في ظاهره ولكنه في حياة محمد صلى الله عليه وسلم قد برهن على أنه وحدة طبيعية من الحب والقوة – المتسامي والواقعي – الروحي والبشري.

هذا المركب المتفجر حيوية من الدين والسياسة يبث قوة هائلة في حياة الشعوب التي احتضنت الإسلام في لحظة واحدة يتطابق الإسلام مع جوهر الحياة.

الفصل الرابع

آراء المفكرين ومشاهير الكتاب الغربيين في الإسلام
وفي رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم

هنا في هذا الفصل سنورد بعض أقوال وآراء مشاهير المفكرين والكتاب الغربيين الذين أثرت أفكارهم وكتاباتهم في العقل الغربي في مجالات الفلسفة والأدب والفكر والسياسة في النبي محمد نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، لعل أولئك المأفونون الحاقدون من السياسيين المنافقين الذين تجاوزوا كل الخطوط والحدود في إساءاتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرتدعوا وأن يفهم العقل الغربي أن إهدار القيم الروحية والأديان يعني السير والاندفاع برؤية قاصرة لا تدرك ما ينتظرها على قارعة ذلك الطريق الذي سينتهي بكوارث مدمرة عند حافات الأفق والمظلم بسعاره وهجيره المادي والنتائج الملموسة على أرض الواقع تشير بوضوح لا لبس فيه إلى أن العالم لم يعد أكثر أمنا بإلحاده وعبادته للمادة التي أنتجت فساداً في كل مناحي الحياة وعلى كافة الصعد وامتلأت خزائنه بأسلحة الفناء ودمرت بيئته وها هي اليابان قرة عين الحضارة الغربية المادية تقف عاجزة عن مواجهة غضبة صغيرة بسبب ذلك الفساد ولا

يختلف اثنان في هذا العالم أن الكرة الأرضية أصبحت حبلى وفي باطنها تستقر آلاف القنابل النووية والهيدروجينية والكيماوية القادرة على إبادة وتدمير الأرض عدة مرات، ناهيك عما يتعرض له الإنسان من مشاكل جمة تعتور حياته وتقض مضجعة وتسلب سعادته مقابل أوهام التكنولوجيا والسعار المتنامي من أجل حيازة تلك الشهوات المادية.

وهذه بعض آراء أولئك المفكرين والكتاب من مشاهير الغرب في نبي الإسلام محمد صلوات الله عليه وسلامه.

هوستاف لوبون (ان محمداً هو أعظم رجالات التاريخ)

ليو تولستوي (هو مؤسس دين ونبي الإسلام الذي يدين به أكثر في كتاب حكم النبي محمد من مائتي مليون من البشر (عام ١٩١٢) قام بعمل عظيم بهدايته وثنيين قضوا حياتهم في الحروب وسفك الدماء فأنار أبصارهم بنور الإيمان وأعلن أن جميع الناس متساوون أمام الله).

ويقول (لقد تحمل في سنوات دعوته الأولى كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات الوثنية القديمة وغيرها شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه المحن لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمداً لم يقل إنه نبي الله الوحيد بل آمن أيضا بنبوة موسى

والمسيح ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً وقال إن اليهود والنصارى لا ينبغي أن يكرهوا على ترك دينهم بل يجب عليهم أن يتبعوا وصايا أنبيائهم.

ويقول أيضا ومما لا ريب فيه أن النبي محمد كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ويكفيه فخراً أنه هدى أمة بأكملها إلى نور الحق وجعلها تجنح إلى السكينة والسلام وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية وهذا عمل عظيم لا يقوم به شخص مهما أوتي من قوة ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإجلال.

أن نظرة تولستوي إلى شخصية الرسول الأكرم المليئة بالاحترام والإجلال مما حدا به إلى تأليف كتابه بلغته الروسية عام ١٩٠٩ أي قبل وفاته بعام واحد تغيا فيه الدفاع عن الإسلام ونبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا توماس كارليل الكاتب الإنجليزي يقول: (إني أحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع، إنه يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة الدنيا والآخرة).

وهـذا هـو الفيلسـوف الفرنـسي والمفكـر لامـارتين يقـول (محمد هو النبي الفيلسوف الخطيب المشرع المحارب قاهر الأهواء وبالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية أود أن اتساءل هل هناك أعظم من النبي محمد).

وهذا هو برنارد شو الكاتب الإيرلندي الشهير يقول (لو تولى العالم الأوروبي رجل مثل محمد لشفاه من علله كافة بل يجب أن يدعي منقذ الإنسانية. أني اعتقد ان الديانة المحمدية هي الديانة الوحيدة التي تجمع كل الشروط اللازمة وتكون موافقة لكل مرافق الحياة وما أحوج العالم اليوم إلى رجل كمحمد يحل مشاكل العالم.

وحتى هتلر القائد النازي الألماني قال في محمد (من النادر جداً أن يكون واضع النظريات قائدا في نفس الوقت لكن الصفتين اجتمعتا في محمد صلى الله عليه وسلم كقائد اجتماعي وعسكري).

وهذا كارل ماركس يقول (هذا النبي افتتح برسالته عصراً للعلم والنور والمعرفة وحري أن تدون أقواله وأفعاله بطريقة علمية خاصة وبما أن هذه التعاليم التي قام بها هي وحي فقد كان عليه أن يمحو ما كان متراكما في الرسالات السابقة من التحوير والتبديل، إن محمداً أعظم عظماء العالم والدين الذي جاء به أكمل الأديان.

ويقـول مرمـاديوك (إن المـسلمين يمكـنهم أن ينـشروا حـضارتهم بنفس الـسرعة الـتي نـشروها بهـا سـابقا إذا رجعـوا إلى ماكـانوا عليـه حينمـا قـاموا بـدورهم الأول لأن هـذا العـالم الخـاوي لا يـستطيع أن يقف أمام حضارتهم.

وتقول العالمة الذرية (جونان التوث) التي أسلمت من بين مـائتين وخمسين رجلاً وامرأة أشهروا إسلامهم ومن بينهم احد سفراء غانـا ان المسألة ليست انتقالا من دين لآخر ولا هي تحد لمشاعر وطقـوس توارثناها إنما هي الحرية المنشودة والفردوس المفقود الذي نـشعر بأننـا في أشـد الحاجـة إليـه نحـن الـشباب في الغـرب نـرفض واقـع الـدين الرومانسي والواقع المادي للحياة، وحل هذه المعادلة الصعبة هي أن نـشعر بالإيمـان بـالله – وتـضيف قائلـة – بعـض الـشباب غـرق في الـرقص بحثـا عـن الله – في الـشيطان وفي المخـدرات وفي الهجـرة إلى الديانات الشرقية القديمة وخاصة البوذية وقليلـون هـم الـذين أعطـوا لأنفسهم فرصة التأني والبحث والدراسـة وهـؤلاء وجـدوا في الـدين الإسلامي حلاً للمعادلة الصعبة وإذا كان عددهم لا يزال قليلاً حتى الآن فلأن ما نـسمعه عـن هـذا الـدين مـشوش ومحرف وغـير صـادق فكـل مـا هـو معـروف عنـدنا عـن الإسـلام خـزعبلات ردده‍ـا المستشرقون منذ مئات الـسنين ولا تـزال أصـداؤها قويـة حتـى الآن،

فالـدين الإسـلامي كمـا في إشـاعات المسـتشرقين هـو ديـن اسـتعباد للمـرأة وإباحـة للـرق وتعـدد الزوجـات وديـن الـسيف لا التـسامح، وتقـول أيـضا لا تـصدقوا فكـرة الحريـة في أميركـا والـتي تنقلـها لكـم السينما الأميركية فإن في بلادنا كثير من المتعصبين دينيا ولـذا فإني أعـرف جيـداً إنـي مقبلـة علـى حـرب صـليبية في بـلادي وأسـرتي وستزداد هذه الحرب اشتعالا عندما أبدأ في إقنـاع غيري بهـذا الـدين العظيم ثـم تختم قائلـة: لقـد بـدأت أحس بوجـود الثـواب والعقـاب وهـذا الـسلوك هـو الـذي سـيحكم سـلوكي ويـضبطه في الاتجـاه الـصحيح وهـذا أحـد قـساوسة جنـوب إفريقيـا يقـول مخاطبـا مبعوثـا صحافيا بالمركز الإسلامي هناك:

أنـا قـس مـن رجـال الـدين المسيحي أحمـل أسمـاً مـسيحياً وهـذا الاسم لا يعنيكم ولن أقوله ولكن أقول بالرغم من أني دربـت علـى المـسيحية وتعلمتهـا في جامعـات بريطانيـا وتم إعـدادي لأكـون رايـة للمسيحيين وداعية لها إلا أني لم أشعر بأن المسيحية استطاعت أن تجيـب عـن تـساؤلات لأنهـا مرتبكـة في جـسدي وقـد فكـرت في التخلص من المسيحية السوداء التي لا تعترف بآدميتنا والـتي جاءتنا بالإنجيل في يد والعبودية في اليد الأخرى، وجاءنا أدعياؤها بالإنجيل في يد وزجاجة الخمر في اليد الأخرى. ثم يضيف قائلا: لقـد رأيـتكم

تصلون فإذا بالأبيض بجانب الأسود والغني بجانب الفقير والمتعلم بجانب الجاهل. لهذا أقول ان الإفريقي ليس بحاجة إلى المسيحية إنه بحاجة إلى هذا الدين العظيم. وبعد أن اغرورقت عيناه بالدموع قال: لماذا حجبتم عنا هذا الدين، أنيروا لنا الطريق فإن مبادئ هذا الدين هي التي يمكن أن تنقذ هذا العالم مما هو مقبل عليه من فوضى ودمار.

وهذا هو آميل درمنجهام الذي كتب كتابا في سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول: ولما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلاف وازدادت حدة، ويجب أن نعترف بأن الغربيين كانوا السباقين إلى أشد الخلاف فمن البيزنطيين من أوقر الإسلام احتقارا من غير أن يكلفوا أنفسهم مرونة دراسته ولم يحاربوا الإسلام إلا بأسخف المثالب فقد زعموا أن محمدا لص وزعموه متهالكاً على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيسا لعصابة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانيا مخنقاً إذ ينتخب لكرس البابوية وحسبه بعضهم ألها زائفا يقرب له عباده الضحايا البشرية وذهبت الأغنيات إلى أن جعلت محمداً صنما من ذهب وجعلت المساجد ملأى بالتماثيل والصور.

وهذا هو ويلز يقول في كتاب (معالم الإنسانية) كل دين لا يسير مع المدنية فاضرب به عرض الحائط ولم أجد ديناً يسير مع المدنية أنى سارت سوى الإسلام.

وهذا هو (هنري دي شاميون) يقول تحت عنوان (الانتصار الهمجي على العرب) لولا انتصار حسين شارك مارثل الهمجي على العرب في فرنسا في معركة "ثور" على القائد الإسلامي "عبدالرحمن الغافقي" لما وقعت فرنسا في ظلمات العصور الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولما كابرت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني ولولا ذلك الانتصار البربري لنجت إسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون بينما كنا مثال الهمجية.

وهذا أنا تول فرانس يقول عن أفظع سنة في تاريخ فرنسا هي سنة ٧٣٢م وهي السنة التي حدثت فيها معركة بواتيه التي انهزمت فيها الحضارة الإسلامية العربية أمام البربرية الإفرنجية وبردق قائلاً : ليت شارل مارتيل قطعت يده ولم ينتصر على القائد الإسلامي لأن انتصاره أخر المدنية عدة قرون.

وفي كتابه "الأبطال" يقول كارليل :

من العار أن يصف الإنسان المتمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين ان دين الإسلام دين كذب وأن محمداً لم يكن على حق ، لقد آن لنا أن نحارب هذه الإدعاءات السخيفة المخجلة. فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيرا أربعة عشر قرنا من الزمن لملايين كثيرة من الناس فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التي عاشت عليها الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع. لو أنه الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفاً وعبثا وكان الأجدر بها ألا توجد.

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتا من الطوب لجهلة بخصائص البناء وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلى كومة من أخلاط هذه المواد ، فما بالك بالذي يبني بيتا دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه مئات الملايين من البشر وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً كاذبا متصنعا متذرعا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع فما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهذا أدوارد مونتيه يقول ان الإسلام دين سريع الانتشار يروج من تلقاء نفسه دون أي تشجيع تقدمه له لمركز منظمة لأن كل مسلم مبشر بطبيعته – فهو شديد الإيمان وشدة إيمانه تستولى على قلبه وعقله وهذه ميزة ليست لدين سواه ولهذا نجد أن المسلم الملتهب إيمانا بدينه يبشر به أينما ذهب وحيث حل وينقل عدوى الإيمان لكل من يتصل به.

هل تأملنا قول كارليل توماس (كلما قرأت القرآن شعرت أن روحي تهتز داخل جسدي).

وهنا الفيلسوف الألماني "جوته" يقول:

(لم يعتر القرآن أي تبديل أو تحريف وعندما تستمع إلى آياته تأخذك رجفة الإعجاب والحب وبعد أن تتوغل في دراسة روح التشريع فيه لا يسعك إلا أن تعظم هذا الكتاب وتقدسه).

وهذا "هوارتست رنيان" يقول:

(سوف تسود شريعة القرآن العالم لتوافقها وانسجامها مع العقل والحكمة لقد فهمت.. لقد أدركت.. ما تحتاج إليه البشرية هو شريعة سماوية تحق الحق وتزهق الباطل).

وهذا هو الكاتب الروسي الشهير "نولستوي" يقول:

(لا يوجد في تاريخ الرسالات كتاب بقى بحروفه كاملاً دون تحوير سوى القرآن الذي نقله محمد).

والأميركي "مايكل هارث" يقول:

(القرآن كتاب الكتب وإني اعتقد هذا كما يعتقده كل مسلم).

وحين سمع العالم الفلكي "جيمس جينز" العالم المسلم "عناية الله مشرقي" يتلو الآية الكريمة " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" صرخ قائلا: مدهش وغريب إنه الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة استمرت خمسين سنة. من أنبأ محمد به هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة، لو كان الأمر كذلك فأنا أشهد أن القرآن كتاب موحى به من عند الله".

ويقول العلامة "بارتلمي هيلر"

(لا شك في أن القرآن من الله ولا شك في ثبوت رسالة محمد).

والدكتور ايرنيبرج الأستاذ في جامعة أوسلو يقول:

(لا أجد صعوبة في قبول أن القرآن كلام الله، فإن أوصاف الجنين في القرآن لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع والاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد من الله).

وهذا جورج سيل الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية قبل قرنين وأكثر من الزمان يقول:

(إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيبا لا مثيل له في العالم لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعا عظيما).

الفصل الخامس

البشارات في العهدين القديم والجديد

كان من المهم جداً أن نورد هنا بشارات العهدين القديم والجديد حول محمد صلوات الله عليه وسلامه، والتي سبقت وجودة وولادته بمئات وآلاف السنين، وأوردت نبوءات تحدثت فيها عن نبوته ورسالته صلوات الله عليه وسلامه، وأوردها اقتباسا أيضاً مما جاء في كتاب د. محمد بن عبدالله السحيم.

بشارات العهد القديم :

البشارة الأولى: رؤيا رآها يعقوب عليه السلام في منامه، وذلك أنه رأى سلماً منصوباً من الأرض إلى السماء، وله خمس درجات، ورأى في منامه أمة عظيمة صاعدة في ذلك الدرج والملائكة يعضدونهم، وأبواب السماء مفتوحة فتجلى له ربه قائلاً: يا يعقوب أنا معك أسمع وأرى، تمن يا يعقوب. فقال: يا رب من أولئك الصاعدون في ذلك الدرج ؟ فقال الله له: هم ذرية إسماعيل. فقال يا رب بماذا وصلوا إليك ؟ فقال: بخمس صلوات فرضتهن عليهم في اليوم والليلة فقبلوهن وعملوا بهن فلما استيقظ يعقوب من منامه فرض على ذريته الخمس الصلوات، ولم يكن

الله سبحانه وتعالى قد فرض على بني إسرائيل صلاة في التوراة إلا القرابين يقربونها، وما زالت بنو إسرائيل وعلماؤهم يصلون الصلوات الخمس إتباعاً لسنة جدهم يعقوب عليه السلام، ولم تزل أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام يبشرون بظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتمنون أن يكونوا في زمانه.

البشارة الثانية: أن يعقوب عليه السلام لما دنت وفاته جمع أولاده وقال لهم: (تقربوا إليّ أقول لكم ما يظهر آخر الزمان. فلما اجتمعوا قال لهم: ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً، قال الإسكندراني: (ولم يوجد في التوراة أنه ذُكر شيء مما وعد به، بل مكتوب في التوراة أنه دعا لهم وتوفى، علم من ذلك أنهم محوا اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم من هذه الآية.

قلت: إن الله صرفهم عن محو اسم النبي صلى الله عليه وسلم من وصية يعقوب، ففي هذا الإصحاح وبعد هذه الفقرة بفقرات يسيرة يرد إخبار يعقوب لأبنائه بما سيكون في آخر الزمان، وقد بقى هذا الإخبار إلى الآن يحمل بعض ألفاظه العبرية، وهو قول يعقوب عليه السلام: (لا يزول صولجان من يهوذا أو مشرّعٌ من بين قدميه حتى يأتي شيلوه، ويكون له خضوع الشعوب)، وقد منّ الله على

المهتدي عبد الأحد داود فكشف اللثام عن هذه الوصية ، وفي الأسطر التالية اقتبس بعض استدلالاته واستنتاجاته على أن هذه البشارة خاصة برسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذه الاستدلالات هي :

أن كلمة "شيلوه" كلمة فريدة في العهد القديم ، ولا تكرر في أي مكان آخر في العهد القديم.

أن كلمة شيلوه تتكون من أربعة أحرف عبرية هي : "شين" ، "يود" ، "لاميد" ، "وهي" ، وتوجد بلدة اسمها شيلوه ولكن لا يوجد فيها حرف "يود" ، ولذلك لا يمكن أن يكون الاسم مطابقاً أو مشيراً للبلدة ، إذاً فالكلمة حيثما وجدت تشير إلى شخص وليس إلى مكان.

أن هذه العبارة اشتملت على ضمير لغير العاقل ، وقد يشير إلى القضيب أو الصولجان ، أو المشرع بصورة منفصلة أو مجتمعة ، وربما يشير للطاعة ، وعليه فإن معنى العبارة : (إن الطابع الملكي المتنبي لن ينقطع من يهوذا إلى أن يجئ الشخص الذي يخصه هذا الطابع ، ويكون له خضوع الشعوب).

بعد أن أورد بعض تحولات الترجمة لهذه الكلمة بين العبرية والسريانية قال: يمكن أن تقرأ هذه العبارة بالصورة التالية: (حتى يأتي الشخص الذي تخصه..)

أن الكلمة "شيلوه" مشتقة من الفعل العبري "شله" وهي تعني المسالم والهاي والوديع والموثوق.

من المحتمل أنه تم على هذه العبارة تحريف متعمد فتكون "شالوه" فحينئذ يكون معناها "شيلوح" وهذه العبارة مرادفة لكلمة "رسول ياه" وهو نفس اللقب الموصوف به محمد صلى الله عليه وسلم "وشيلواح إلوهيم" تعني: رسول الله.

لا يمكن أن تنطبق هذه البشارة على المسيح حتى لو آمن اليهود بنبوته، لأنه لا توجد أي من العلامات أو الخصائص التي توقعها اليهود في هذا النبي المنتظر في المسيح عليه السلام، فاليهود كانوا ينتظرون مسيحاً له سيف وسلطة، كما أن المسيح رفض هذه الفكرة القائلة بأنه هو المسيح المنتظر الذي تنتظره اليهود.

أن هذه النبوة قد تحققت حرفيا وعملياً في محمد صلى الله عليه وسلم، فالتعابير المجازية "الصولجان" و "المشرع" قد أجمع الشراح المعلقون على أن معناها السلطة الملكية والنبوة. وهذا يعني علمياً أنه

صاحب الصولجان والشريعة، أو الذي يملك حق التشريع وتخضع له الشعوب.

لا يمكن أن تنطبق هذه البشارة في حق موسى، لأنه أول منظم لأسباط بني إسرائيل، ولا في حق داود، لأنه أول ملك فيهم.

لو تم تفسير "شيلوه" بـ "شالا" الآرامية فهي تعني: هادي ومسالم وأمين، وهذا يتفق مع تفسير "شله" العبرية. وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة هو الأمين، وهو محل الثقة، وهو المسالم الهادي الصادق. وبعد هذه المحاولات التفسيرية والترجمة ينتقل المهتدي عبد الأحد إلى إلزام الخصم بهذه النبوة ومدلولاتها وهي ما يلي:

أن الصولجان والمشرع سيظلان في سبط يهوذا طالما أن شيلوه لم يظهر.

بموجب ادعاء اليهود في هذا "الشيلوه" فإن شيلوه لم يظهر، وأن الصولجان الملكي والخلافة تخصان ذلك السبط، وقد انقرضنا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

أن سبط يهوذا اختفى مع سلطته الملكية وشقيقتها الخلافة النبوية، ومن الشروط الأساسية لظهور "الشيلوه" إبقاء السبط على

وجـه الأرض يعيـــض في أرض آبائـــه ، أو في مكـــان آخـــــر بصـــورة جماعيــة.

اليهود مضطرون أن يقبلوا واحداً من الخيارين : إما التسليم بـأن "شيلوه" قـد جـاء مـن قبـل ، وأن أجـدادهم لم يتعرفـوا عليـه. أو أن يتقبلــوا أن سبط يهوذا لم يعد موجوداً ، وهـو الـسبط الـذي ينحـدر منه "شيلوه".

أن الـنص يتـضمن بـصورة واضـحة ومعاكـسة جـداً للاعتقـاد اليهـودي والنـصراني – أن "شـيلوه" غريـب تمامـاً علـى سـبط يهـوذا وبقية الأسباط ، لأن النبوة تدل علـى أنـه عنـدما يجـيء "شـيلوه" فـإن الصولجان والمشرع سوف يختفيان من سبط يهـوذا ، وهـذا لا يتحقـق إلا إذا كان "شيلوه" غريباً عن يهوذا ، فإن كان "شـيلوه" منحـدراً مـن يهوذا فكيف ينقطع هذان العنصران من ذلـك الـسبط ، ولا يمكـن أن يكون "شيلوه" منحدراً من أي سبط آخر ، لأن الـصولجان والمـشرع كانـا لمـصلحة إسـرائيل كلـها ، ولـيس لمـصلحة سـبط واحـد. وهـذه الملاحظة الأخيرة تقضي علـى الادعـاء النـصراني في أن المـسيح هـو "شيلوه" ، لأن المسيح منحدر من يهوذا من جهة أمه.

وقد أورد هذه البشارة النجار وقال إن المعنى : أن النبوة تبقى في سبط يهوذا – أكبر أولاد سيدنا يعقوب – حتى يأتي "شيلون" أي الإسلام، وتخضع له الأمم.

أولاً : بشارة سفر العدد : ما ورد في قصة بلعام بن باعوراء أنه قال : (انظروا كوكباً قد ظهر من آل إسماعيل، وعضده سبط من العرب، ولظهوره تزلزلت الأرض ومن عليها) وقال المهتدي الإسكندراني : (ولم يظهر من نسل إسماعيل إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، وما تزلزلت الأرض إلا لظهوره صلى الله عليه وسلم. حقا إنه كوكب آل إسماعيل، وهو الذي تغير الكون لمبعثه صلى الله عليه وسلم ، فقد حرست السماء من استراق السمع، وانطفأت نيران فارس، وسقطت أصنام بابل، ودكت عروش الظلم على أيدي أتباعه.

وقد حرف هذا النص في الطبعات المحدثة إلى : (يبرز كوكب من يعقوب، ويقوم قضيب من إسرائيل، فيحطم موآب، ويهلك من الوغى).

ثانياً : بشارات سفر التثنية :

البشارة الأولى : لما هُزمت جيوش بني إسرائيل أمام العمالقة، توسل موسى إلى الله سبحانه وتعالى مستشفعاً بمحمد

صلى الله عليه وسلم قائلاً : (اذكر عهد إبراهيم الذي وعدته به من نسل إسماعيل أن تنصر جيوش المؤمنين ، فأجاب الله دعاءه ونصر بني إسرائيل على العمالقة ببركات محمد صلى الله عليه وسلم) وقد استبدل هذا النص بالعبارات التالية : (اذكر عبيدك إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ولا تلتفت إلى غلاظة هذا الشعب وإثمه وخطيئته) ولا يمكن أن يكون هذا الدعاء — الذي في النص الأول — قد صدر من موسى عليه السلام ، لأنه ينافي كمال التوحيد.

البشارة الثانية : في الفصل الحادي عشر أن موسى قال لبني إسرائيل : (إن الرب إلهكم يقيم نبياً مثلي من بينكم ، ومن إخوتكم فاسمعوا له) وقد ورد في هذا الإصحاح ما يؤكد هذا القول ويوضحه ، وهو ما ورد في التوراة أن الله قال لموسى : (إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم ، وأيما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه) وتكاد أن تكون هذه البشارة محل إجماع من كل من كتب في هذا الجانب ، وقد بين هؤلاء المهتدون كيف تنطبق هذه البشارة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من خلال الوجوه التالية :

اليهود مجمعون على أن جميع الأنبياء الذين كانوا في بني إسرائيل من بعد موسى لم يكن فيهم مثله. والمراد بالمثلية هنا أن يأتي

بشرع خاص تتبعه عليه الأمم من بعده، وهذه صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه من إخوتهم العرب، وقد جاء بشريعة ناسخة لجميع الشرائع السابقة، وتبعته الأمم عليها، فهو كموسى، هذا فضلاً عن أن لفظه (من بينهم) الواردة في البشارة قد أكدت وحددت الشخص المراد.

هذا النص يدل على أن النبي الذي يقيمه الله لبني إسرائيل ليس من نسلهم، ولكنه من إخوتهم، وكل نبي بعث من بعد موس كان من بني إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام، فلم يبق رسول من إخوتهم سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

أن إسماعيل وذريته كانوا يسمون إخوة لبني إبراهيم عليه السلام، لأن الله قال في التوراة لهاجر – حسب رواية العهد القديم – عن ابنها إسماعيل: (بأنه قبالة إخوته ينصب المضارب) كما دعى إسحاق وذريته إخوة لإسماعيل وذريته.

أن في هذه الآية إشارة خفية غير صريحة، فائقة الحكمة، لأن موسى لو كان قصد بالنبي الموعود أنه من بني إسرائيل، لكان ينبغي أن يقول بدلا من (من إخوتكم): منكم، أو من نسلكم، أو من أسباطكم، أو من خلفكم، وبما أنه ترك هذا الإيضاح، علمنا أنه قصد بهذه الإشارة أنه من بني إسماعيل المباينين لهم.

إشتمل هذا النص على مفردة كافية للتدليل على أن هذه النبوة خاصة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي قوله: "انتقم منه". وفي بعض الترجمات (وكل نفس لا تسمع لذلك النبي وتطيعه تستأصل). فهي تدل على أن من لا يسمع له ويطعه ينتقم منه ويستأصل. وهذا ينطبق تماماً مع حال المخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن تنطبق على عيسى عليه السلام الذي طارده وحاربه اليهود، ولم يقع عليهم الإنتقام منه أو من أتباعه، وهذه المفردة كافية للتدليل على صدقها على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

البشارة الثالثة: جاء في الفصل العشرين: (أن الرب جاء من طور سينين، وطلع لنا من ساعير، وظهر من جبل فاران، ومعه عن يمينه ربوات القديسين فمنحهم العز، وحببهم إلى الشعوب، ودعا بجميع قديسيه بالبركة) وهذه البشارة كالتي قبلها كادت أن تكون محل إجماع وقبول ممن كتب في هذا الجانب.

وفاران هي مكة وأرض الحجاز، وقد سكنها إسماعيل، ونصت على ذلك التوراة (وأقام في برية فاران، وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر) وإذا كانت التوراة أشارت إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل، لأنهم سكان فاران.

أما من توهم أن فاران الواردة في هذه البشارة هي التي بقرب جبل سيناء – فليس ظنه صحيحاً، لأن فاران تلك هي برية فاران كما أفادت عنها التوراة. وهنا ذكر جيلاً. ودعيت تلك فاران بسبب أنها ظليلة من الأشجار. ولفظة فاران عبرية تحتمل الوجهين، فإذا ذكرت البرية لزم أنها ظليلة، وإن ذكر الجبل ينبغي أن يفهم بأنه جبل ذو غار، وفي هذه البشارة ذكر جبل فعلم أنه جبل فاران الذي فيه المغارة. كما أن لفظة فاران مشتقه من فاري بالعبرية وعربيتها: المتجمل. أي المتجمل بوجود بيت الله. وهذه الجبال قد تجملت ببيت الله.

ومعنى جاء الرب: أي ظهر دينه ودعي إلى توحيده. كما أن لفظة "رب" هنا تقع على موسى وعيسى ومحمد وهي مستعملة بهذا الإطلاق في اللغة السريانية والعربية فتقول العرب رب البيت بمعنى صاحب البيت ويقول السريان لمن أرادوا تفخيمه "مار" ومار بالسريانية هو الرب.

وقد أورد المهتدي الإسكندراني هذه البشارة باللغة العبرية ثم ترجمها إلى اللغة العربية ونص ترجمته هكذا: (جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير، واستعلن من جبال فاران، وظهر من ربوات قدسه عن يمينه نور وعن شماله نار، إليه تجتمع الأمم، وعليه

تجتمع الشعوب) وقال: (إن علماء بني إسرائيل الشارحين للتوراة شرحوا ذلك وفسروه بأن النار هي سيف محمد القاهر، والنور هي شريعته الهادية صلى الله عليه وسلم.

وقد يقول قائل: إن موسى تكلم بهذه البشارة بصيغة الماضي فلا تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم. والجواب أن من عادة الكتب الإلهية أن تستعمل الماضي في معنى المستقبل، ألم تر أنه أخبر عن عيسى في هذه البشارة كذلك بصيغة الماضي، فإن قبلت هذه البشارة في حق عيسى فهي في حق محمد ادعى للقبول.

وفي الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التي كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء ما يقتضي للعقلاء أن يبحثوا عن المعنى المراد منه المؤدي به إلى إتباع دينهم. وقد ربط المهتدي إبراهيم خليل بين هذه البشارة وبين صدر سورة التين واستنتج منه تطابقاً كاملاً في الوسيلة والتعبير.

البشارة الرابعة: لما بعث المسيح عليه السلام إلى بني إسرائيل، وأظهر لهم المعجزات، نهض إليه عالم من علمائهم يقال له شمعون بلقيش وقال له: (لا نؤمن بك ولا نسلم لك فيما ادعيته، ولا فيما أتيت به، لأن موسى عليه السلام أخبرنا في شريعته عن الله عز وجل أن النبي المبعوث في آخر الزمان هو من نسل إسماعيل،

وأنت من بني إسرائيل. واستدل على ذلك بقول موسى في التوراة: (لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى) وأفتوا بقتل عيسى عليه السلام. وعيسى لم يدع أنه مثل موسى، وإنما دعاهم إلى عبادة الله وحده، والعمل والتصديق بما في التوراة.

ثالثاً: بشارة اليأس:

ذكر المهتدي الإسكندراني أنه جاء في صحف إلياس عليه السلام أنه خرج في سياحته وصحبه سبعون رجلاً، فلما رأى العرب بأرض الحجاز قال لمن معه: انظروا هؤلاء الذين يملكون حصونكم العظيمة فقالوا: يا نبي الله ! ما الذي يكون معبودهم ؟ فقال عليه السلام: يوحدون الله تبارك وتعالى فوق كل منبر عال، فقال له أتباعه يا نبي الله ! من يدلهم على ذلك ؟ فقال: ولد يولد من نسل إسماعيل، اسمه مقرون باسم الله، حيث يذكر اسم الله تعالى يذكر اسمه. قال المهتدي الإسكندراني: ولم يكن ذلك إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم.

رابعا: بشارات المزامير:

البشارة الأولى: قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين: (من أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد السيف أيها الجبار، لأن بهاءك وحمدك البهاء الغالب، وأركب كلمة

الحق، وسميت التأله، فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك، وسهامك مسنونه، والأمم يخرون تحتك) وقد أورد هذه البشارة المهتدي الشيخ زيادة في البحث الصريح بصورة أطول من هذه، وكل الصفات الواردة في كلا النصين تنطبق تماماً على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

البشارة الثانية: قول داود عليه السلام في المزمور الثامن والأربعين: (إن ربنا عظيم محمود جداً، وفي قرية إلهنا وفي جبله قدوس ومحمد، وعمت الأرض كلها فرحا) فقد صرح وأبان عن اسمه، وذكر مبعثه وهي أم القرى، ووصف حال الكون بعد مبعثه وهو الاستبشار والفرح، ألم تتلق الشعوب المغلوبة على أمرها جنوده بالفرح والاستبشار كما هو مدون في كتب السير والتأريخ. وقد حرف هذا النص في الطبعة التي بين يدي إلى: (عظيم هو الرب وحميد جداً في مدينة إلهنا قدسه) وقد يتضح القصد من إبدال القرية بالمدينة، حتى تنطبق هذه البشارة على أنبياء بني إسرائيل المبعوثين في مدنهم. وقد أعماهم الله عن تحريف الجزء الأول منه فلله الحمد والمنة.

البشارة الثالثة: قول داود عليه السلام في المزمور الخمسين: (إن الله صهيون إكليلاً محموداً، فالله يأتي ولا يهمل، وتحرق النيران بين

يديه، وتضطرم حواليه اضطراماً) وقال المهتدي الطبري تعليقاً على هذه البشارة: (أفما ترون أنه لا يخلى داود عليه السلام شيئاً من نبواته من ذكر محمد أو محمود، كما تقرءون، ومعنى قوله إكليلاً محموداً: أي أنه رأس وإمام محمد محمود، ومعنى محمد ومحمود وحميد شيء واحد في اللغة، وإنما ضرب بالإكليل مثلاً للربانية والإمامية) وقد حرف هذا النص إلى: (من صهيون كمال الجمال الله أشرق، يأتي إلهنا ولا يصمت).

البشارة الرابعة: قول داود في المزمور الثاني والسبعين: (إنه يجوز من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض، وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم، وتلحس أعداؤه التراب، تأتيه ملوك تاريس والجزائر بالقرابين، وتقرّب إليه ملوك سابا القرابين، وتسجد له الملوك كلهم، وتدين له الأمم كلها بالطاعة والانقياد، لأنه يخلص المضطهد البائس ممن هو أقوى منه، ويفتقد الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالضعفاء والمساكين، وينجي أنفسهم من الضر والضيم، وتعز عليه دماؤهم، وأنه يبقى ويعطى من ذهب سبأ، ويصلى عليه في كل وقت، ويبارك عليه كل يوم مثل الزروع الكثيرة على وجه الأرض، ويطلع ثماره على رؤوس الجبال، كالتي تطلع من لبنان، وينبت في مدينته مثل عشب

الأرض، ويدوم ذكره إلى الأبد، وأن اسمه لموجود قبل الشمس، فالأمم كلهم يتبكون به، وكلهم يحمدونه) وقال المهتدي الطبري: (ولا نعلم أحداً يصلى عليه في كل وقت غير محمد صلى الله عليه وسلم) وغني هذا النص عن زيادة تعليق أو شرح، فلم تتحقق هذه الصفات متكاملة لنبي أو ملك قبل محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما تحققت له، وبمقارنة سريعة بين الآيات التي سأوردها وهذا النص يتضح التماثل التام بينهما، قال تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وقال عز وجل: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأة فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار).

وقد تضمن المزمور الذي وردت فيه هذه البشارة بعض الألفاظ التي لا تزال مشرقة وشاهدة وهي قول داود: (ويشرق في أيامه الصديق وكثرة السلام إلى أن يضمحل القمر) وهذا اللفظ يقع مباشرة قبل قوله: (إنه يجوز من البحر إلى البحر..) ولنفاسه هذا اللفظ أحببت إيراده. وقد ضُبطت لفظة "الصديق" بالشكل الذي

نقلته، فهل بعد هذا الإيضاح يبقى إشكال لذي عقل؟ وقد ذكر صاحبه الصديق رضي الله عنه، وذكر سنة من سنن دينه وهي كثرة السلام إلى أن يضمحل القمر، واضمحلال القمر تعبير عن الساعة يشهد له أول سورة التكوير والانفطار، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة أن يكون السلام على الخاصة.

البشارة الخامسة: قال داود في المزمور الحادي عشر بعد المائة: (قال يهوه لسيدي: اجلس على يميني إلى أن أجعل أعداءك مسنداً لقدميك) ويبرر المهتدي عبد الأحد داود إطلاق داود عليه السلام لهذا الوصف "سيدي" بما يلي:

أن داود كان ملكاً قوياً، ولا يتأتى أن يكون خادماً لأي كائن بشري.

لا يمكن أن نتصور أنه كان يعني بهذا اللقب أحد الأنبياء المتوفين.

لا يمكن لداود أن يدعو أحداً من سلالته "سيدي"، لأن اللقب المعقول حينئذ سيكون: يا بني.

لا يمكن أن يكون المسيح عليه السلام هو الذي عناه داود بسيدي، لأن المسيح قد استثنى نفسه من هذا اللقب بنص إنجيل برنابا.

أما الحجج التي احتج بها عبد الأحد على أن الموصوف بـ "سيدي" في هذا النص هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في كالتالي:

أنه أعظم نبي، لأنه هو الذي نشر التوحيد، وقضى على الشرك، وطهّر الكعبة من الأصنام، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، إذاً ليس لداود فحسب، بل سيد الأنبياء ولا فخر.

أن عيسى اعترف أنه لم يكن سيد داود، فلم يبق سوى محمد صلى الله عليه وسلم سيداً لداود.

بمقارنة ما قدمه محمد صلى الله عليه وسلم للبشرية مع ما قدمه كافة الأنبياء، نخرج بنتيجة تفرض نفسها وهي أن محمد صلى الله عليه وسلم وحده هو الذي يستحق هذا اللقب المميز.

تفوقه صلى الله عليه وسلم في التنديد بالشرك والوثنية وبالثالوث النصراني.

أن هذا التشريف قد تم ليلة المعراج.

البشارة السادسة: قول داود عليه السلام في المزمور التاسع والأربعين بعد المائة: (من أجل أن الرب أتاح لشعبه وتطول على المساكين بالخلاص، فليتعزز الأبرار بالكرامة، ويسبحونه على مضاجعهم، ويكرمون الله بحناجرهم، لأن في أيديهم السيف ذا

الشفرتين للانتقام من الشعوب وتوبيخ الأمم، وإثقال ملوكهم بالقيود، وعليّتهم ومكرّميهم بالسلاسل، ليحملهم على القَدَر المكتوب المبرم، فالحمد لجميع أبراره) ألم تحقق هذه النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه؟ ألم يقل الحق عنهم: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) أما قوله: ويكرمون الله بحناجرهم. فهذا من أخص خصائص هذه الأمة، وهو الأذان والإقامة والتكبير والتسبيح والذكر. وقال المهتدي الطبري معلقاً على هذه البشارة: (أما ترون — يهديكم الله — هذه الصفات خالصة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته ؟ فهو الذي معه السيف ذو الشفرتين، وهو المنتقم بأمته من جبابرة فارس وطغاة الروم وغيرهم، وهو الذي قيّدت أمته الملوك، وساقت جلّتهم وأولادهم في السلاسل والأغلال).

البشارة السابعة: قول داود عليه السلام في المزمور الثاني والخمسين بعد المائة: (لترتاح البوادي وقراها، ولتصر أرض قيدار مروجاً، وليسبح سكان الكهوف، ويهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب، ويذيعوا تسابيحه في الجزائر، لأن الرب يجئ كالجبار، كالرجل المجرب المتلظي للتكبر، فهو يزجر ويتجبر، ويقتل أعداءه) قال المهتدي الطبري: (من قيدار؟ إلا ولد إسماعيل عليه السلام،

وهـم سـكان الكهـوف الـذي يحمـدون الـرب ويـذيعون تـسابيحه في الهواجر والأسحار) ولم يختص أبناء إسماعيـل بسكنى الكهـوف، وإنما ذكر في هـذه البشارة سكان البـوادي والقـرى والكهـوف وقلـل الجبال والجزائر إشارة إلى شمول رسالته صلى الله عليه وسلم كافة أرجاء المعمورة، ولجميع الأماكن الممكنة لسكنى البشر كالبوادي والقرى والكهوف والجزائر وقلل الجبال، وليس وراء هذه الأماكن ما ينفع لإقامة البشر فيها واتخاذها مسكناً.

البشارة الثامنة: قول داود عليه السلام: (طوبى لكم يا بني إسماعيل سيبعث منكم نبي تكون يده عالية على كل الأمم، وكل الأمم تحت يده) وعلق الإسكندراني على هذه البشارة بقوله: (ومن المعلوم أن إسماعيل عليه السلام لم يكن ظهر له ملك، ولا علت يده على إخوته، ولا نزل إلى الشام ولا سكن، ولم يكن ذلك إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأمته هم الذين سكنوا بمساكن بني إسرائيل بمصر والشام) وهذه البشارة مماثلة للبشارة الأولى في سفر التكوين – وقد سبق إيرادها في هذا المبحث.

البشارة التاسعة: قول داود في المزمور: (عظموا الله يا كل الأمم، ووحدوا الله يا أهل الأرض، سيبعث لكم نبي الرحمة)

فهل بعد هذا التصريح من تصريح؟ ومن غير محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ؟ .

خامساً : بشارات إشعياء :

البشارة الأولى : قول إشعياء في الإصحاح الأول : (اسمعي يا سموات، وقرّي يا أرض، ولماذا تقلقي؟ سيبعث عليك نبي به ترحمي) وهذه النبوة توافق النبوة الماضية في مزامير داود عليه السلام التي قال فيها : سيبعث لكم نبي الرحمة.

البشارة الثانية : قول إشعياء في الفصل الثالث : (إني رافع آية للأمم، من بلد بعيد، وأصفر لهم من أقاصي الأرض صفيراً، فيأتون سراعاً عجالاً، ولا يميلون ولا يتعثرون ولا ينعسون ولا ينامون ولا يحلون مناطقهم، ولا ينقطع معقد خفافهم، سهامهم مسنونة، وقسيهم موترة، وحوافر خيلهم كالجلاميد صلابة، وعجلهم مسرعة مثل الزوابع، وزئيرهم كنهيم الليوث، وكشبل الأسد الذي يزأر وينهم للفريسة، فلا ينجو منهم ناج، ويرهقهم يومئذ مثل دوي البحر واصطكاكه، ويرمون بأبصارهم إلى الأرض فلا يرون إلا النكبات والظلمات، وينكشف النور عن عجاج جموعهم) وقد استنبط المهتدي الشيخ زيادة من هذا النص الدلالات التالية :

هذه البشارة منطبقة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من كل وجه، بدليل قوله رابع آية للأمم. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو العلامة المرفوعة لسائر الأمم.

أن قوله: من بلد بعيد، إشارة إلى أن هذه العلامة ترفع للأمم من خارج أرض بني إسرائيل، ويتضح ذلك من قوله بعده: من أقاصي الأرض. فكأنه قال: إن أقصى أرض إسرائيل هي الأرض التي يخرج منها ذلك النبي صلى الله عليه وسلم.

نفى التعب والإعياء والنوم عن جيوشه، وإثبات السرعة، برهان ظاهر على أن المراد بهذه النبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الملائكة كانت تشارك في جيوشه، وهم الذين لا ينامون ولا يسأمون.. كما أن نفي النوم عنه يدل أيضا على نبينا، لأنه كان يقضي الليل في العبادة والذكر والصلاة، حتى تورمت قدماه.

الشهادة لحوافر خيله بأنها مثل الصوان، مطابق لوصف الله لها في القرآن بقوله: (والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا) ولا يمكن أن تنطبق هذه البشارة على عيسى عليه السلام، لأنه لم يكن له خيل.

ولعل المراد من قوله: وأصفر لهم من أقاصي الأرض فيأتون سراعاً عجالاً. هو النداء بالحج إلى بيت الله الحرام الوارد في قوله

تعالى: (وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق). وعبر بالصفير عن النداء والأذان.

البشارة الثالثة: قول إشعياء في الفصل الخامس مفسراً ما تقدم من نبواته: (إن الأمة التي كانت في الظلمات رأت نوراً باهراً، والذين كانوا في الدجى وتحت ظلال الموت سطع عليهم الضوء، أكثرت من التبع والأحزاب، ولم تستكثر بهم، فأما هم فإنهم فرحوا بين يديك كمن يفرح يوم الحصاد، وكالذين يفرحون عند اقتسام الغنائم، لأنك فككت النير الذي كان أذلهم، والعصا التي كانت على أكتافهم، وكسرت القضيب الذي كان يستبعد بهم مثل كسرك من كسرت في يوم مدين وقال الطبري: (وذلك شبيه بما وصف الله تعالى عن النبي في القرآن وقال إنه يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم).

وهذا النص يصور حال أمته قبل بعثته، فقد كانت ترتع في ظلمات الجهل والشرك، ثم أضاء لها نور الوحدانية فاتبعته، وبعد أن كانت أمة مستضعفة، كثر أتباعها، وفرحوا بانضمامهم إليها، وبسبب هذه الرسالة رفع الله عنهم استبعاد الأمم لهم، وانقلبت حالهم فإذا هم المسيطرون على بني البشر.

البشارة الرابعة: قول إشعياء في الفصل الخامس: (إنه ولد لنا مولود، ووهب لنا ابن سلطانه على كتفه) هذا النص عن الترجمة السريانية، أما ترجمته عن اللغة العبرية فهو: (إن على كتفه علامة النبوة).

وقد أورد المهتدي الشيخ زيادة هذه البشارة بالنص العبري ثم ترجمها إلى اللغة العربية، وكانت بصورة أطول مما ذكره الطبري هنا، واستنتج منها الأدلة التالية الدالة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي:

أن اسمه عجيب، فلم يتسم أحد بهذا الإسم الشريف من قبل.

أنه من سلالة إسماعيل الذي لم يظهر منهم سواه.

أن لفظه "عجيباً" التي تضمنتها البشارة قد وجدت في التوراة اليونانية "رسولاً" وهو الاسم المتغلب عليه صلى الله عليه وسلم.

هذه النبوة تضمنت أن إشعياء سماه "مشاوراً"، ولم يكن أحد أكثر منه مشاورة لأصحابه صلى الله عليه وسلم.

أن إشعياء قال عنه: "سيد سلام"، وهذا يدل على أنه رئيس الإسلام والمسلمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين. ولا تنطبق هذه الأوصاف على عيسى عليه السلام، لأنه لا توجد على كتفه علامة

النبوة، ولم يكن اسمه عجيباً فقد سبقه من تسمى بمثل اسمه، ولم يأت بشريعة مستقلة.

والمقصود بهذه البشارة الإشارة إلى خاتم النبوة الذي كان على كتفه الشريف، وقد استفاضت كتب السنة والسيرة والدلائل بذكر خبره وصفته، وكذلك القصص والحوادث المتعلقة به كقصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقصة بحيرا الراهب.

البشارة الخامسة: قول إشعياء في الفصل العاشر: (هكذا يقول الرب إنك تأتي من جهة التيمن، من بلد بعيد، ومن أرض البادية مسرعاً، مقداً مثل الزعازع من الرياح، ورأينا منظراً رائعاً هائلاً ظالماً يظلم، ومنتهياً ينتهب ... ولتقم السادة والقادة إلى أترستهم، فيدهنوها لأن الرب قال لي: هكذا أمض فأقم الربيئة على المنظرة، ليخبر بما يرى، فكان الذي رأى راكبين: أحدهما راكب حمار، والآخر راكب جمل.. فبينما أنا كذلك إذ أقبل أحد الراكبين وهو يقول: هوت بابل وتكسرت جميع آلهتها المنجورة على الأرض، فهذا الذي سمعت من الرب إله إسرائيل العزيز قد أنبأتكم). ويستنتج من هذا النص الدلالات التالية المؤكدة على أن المعنى بهذه البشارة هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

أن إشعياء قال: ستأتي من جهة التيمن، من بلد بعيد، من أرض البادية، لئلا يدع حجة لمحتج، لأنه لم يأت أحد بهذه النوبة من أرض التيمن الواقعة في البادية البعيدة عن أرض إسرائيل سوى محمد صلى الله عليه وسلم.

أنه قال: (هوت بابل وانكسرت جميع آلهتها). ولم تزل الأوثان تعبد في بابل حتى ظهر محمد صلى الله عليه وسلم، فأطفأ نيرانهم، وهدم أوثانهم، واذعنوا لدين الله طوعاً أو كرهاً.

إذا كان راكب الحمار ينطبق على المسيح، فليس في الدنيا راكب جمل أولى بهذه النبوة من محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أورد المهتدي الإسكندراني النص العبري المتعلق براكب الحمار وراكب الجمل، ثم اتبعه بالترجمة العربية وجاء فيه: (فرأى ركب رديف خيل، ركب رديف حمار، ركب رديف جمل) وقال: هذه حال جيوشه صلى الله عليه وسلم، خلاف عساكر الملوك، لأن الملوك لا تركب جيوشها مراديف، ولا يركبون الحمير والجمال.

أما قوله: (ظالماً بظلم، ومنتهبا ينتهب). فقصد به الإمبراطورية الفارسية والرومانية.

البشارة السادسة: قول إشعياء في الفصل السادس عشر: (لتفرح أهل البادية العطشى، ولتبتهج البراري والفلوات، ولتخرج

نوراً كنور الشسلبذ، ولتستر وتزه مثل الوعل، لأنها ستعطى بأحمد محاسن لبنان، وكمثل الدساكر والرياض، وسيرون جلال الله عز وجل وبهاء إلهنا) وقد اشتملت هذه البشارة على ذكر بلده وحال أمته، وصرحت باسمه، وتضمنت ما وعدوا به من النظر إلى وجهه تعالى في الآخرة.

البشارة السابعة: قول إشعياء في الفصل التاسع عشر: (هتف هاتف في البدو وقال: خلوا الطريق للرب، وسهلوا لإلهنا السبيل في القفر، فستمتلئ الأودية كلها مياهاً، وتنخفض الجبال انخفاضاً، وتصير الآكام دكا دكاً، والأرض الوعرة ملساء، وتظهر كرامة الرب، ويراه كل أحد، من أجل أن الرب يقول ذلك). ولم تدع أمه من البادية وتكرم هذا التكريم سوى الأمة الإسلامية. وقد أول الطري الجبال والروابي في هذه البشارة على أنهم الملوك والجبابرة، وأن الأودية الواردة هنا حقيقية.

ولعل الأولى أن يتم تأويل هذه الأودية على معنى معنوي كما أول الجبال والآكام فيكون المقصود بفيضان الأودية بالماء هو انتشار الإسلام، وإشاعة العلم الشرعي الذي لا تستغني عنه الأمة، كما أنها لا تستغني عن الماء، وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم ما بُعث به بالغيث أصاب الأرض.

البشارة الثامنة: قول إشعياء في الفصل التاسع عشر: (من الذي نبه البر من المشرق، ودعاه إلى موطئ قدمه ليسلم إليه الأمم، ويذهل عنه الملوك، ويجعل سيوفه في عدد الثرى .. وقسيه في عدد الحزم المنثورة، فهو يغلبهم ويضرب وجوههم، ثم يحدث سلماً، ولا يطأ برجله سفراً). قال الطبري: (فإن الحجاز والعراق وما ولاها عند أهل الشام مشرق). ومعنى قوله من الذي نبه البر. لعله بمعنى من الذي نبه البار من المشرق، أو لعل المقصود بالبر الإيمان، كما جاء في قوله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر). أما بقية النص فهو متحقق في النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي سلمت إليه الأمم قيادها، وذهل منه الملوك، وكانت سيوفه بعدد الثرى، وهو الذي تغلب على الكفار وخذلهم، ولم تجتمع هذه الصفات لأحد سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

البشارة التاسعة: قول إشعياء في الفصل العشرين: (يا آل إبراهيم خليلي الذي قويتك، ودعوتك من أقاصي الأرض، ومن نجودها وعواليها، ناديتك وقلت لك: إنك عبدي وأنا اجتبيتك، ولم أستر ذلك، فلا تخف، لأني معك، ولا ترهب فها أنا إلهك أيدتك ثم أعنتك، وبيميني العزيزة البرة مهدت لك، ولذلك يبهت

ويخزي المستطيلون عليك، ويضمحل ويتلاشى الذين يمارونك ويشاقونك، ويبيد القوم المنازعون لك، وتطلبهم فلا تحس منم أثراً، لأنهم يبطلون، ويصيرون كالنسئ المنسي أمامك لأني أنا الرب قويت يمينك، وقلت لك لا تخف، فإني أنا عونك ومخلصك، هو قدوس إسرائيلل، يقول الله الرب: (أنا جاعلك مثل الجرجر الحديد الذي يدق ما يأتي عليه دقاً، ويسحقه سحقاً، وكذلك تفعل أنت أيضاً، تدوس الجبال، وتدقها، وتجعل المدائن والتلال هشيماً تذروه العواصف، وتلوى به هوج الرياح، وتبتهج أنت حينئذ، وترتاح بالرب، وتكون محمداً بقدوس إسرائيل). وقد استبدل أول هذا النص بـ (وأما أنت يا إسرائيل عبدي، يا يعقوب الذي اخترته من نسل إبراهيم). كما استبدل آخره بـ (وأنت لتبتهج بالرب بقدوس إسرائيل تفتخر).

وقد تقدم في البشارات السابقة أن أرض الحجاز واقعة في أقاصي أرض إسرائيل، أما قوله: (فلا تخف لأني معك، ولا ترهب فها أنا إلهك أيدتك ثم أعنتك). فهو متفق مع قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس). أما قوله: (يبهت ويخزي المستطيلون عليك). فهو متفق مع قوله تعالى: (إنا كفيناك المستهزئين) وقوله: (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) كما أنه متفق مع حال المناوئين له والمخالفين

لأمره ممن كانوا أمما أو أفراداً. ومعنى قوله: (تدوس الجبال وتدقها) .. فقد سبق تأويل الجبال بالملوك والجبابرة، وقد سحقوا أمام جيوشه وجيوش أصحابه، وأصبحوا هشيماً تذروه الرياح.

وقال المهتدي الطبري: (وإن شغب شاغب فأكثر ما يمكنه أن يقول: إن تفسير اللفظة السريانية هو: أن يكون محموداً وليس بمحمد. ومن عرف اللغة وفهم نحوها لم يخالفنا في أن معنى محمود ومحمد شيء واحد).

البشارة العاشرة: قول إشعياء في الفصل العشرين: (إن المساكين والضعفاء يستسقون ماء ولا ماء لهم، فقد جفت ألسنتهم من الظمأ، وأنا الرب أجيب حينئذ دعوتهم، ولن أهملهم بل أفجر لهم في الجبال والأنهار وأجري بين القفار العيون، وأحدث في البدو آجاماً، وأجري في الأرض ماء معيناً، وأنبت في القفار البلاقع والصنوبر والآس والزيتون، وأغرس في القاع الصفصف والسرو البهية، ليروها جميعاً، وليعلموا ويتدبروا ثم يفهموا معاً أن يد الله فعلت ذلك، قدوس إسرائيل ابتدعه) وقد ذهب الطبري إلى أن الألفاظ الواردة في هذه النبوة على حقيقتها، فقال: (فأين لكم يا بني عمي المحيد عن هذه النبوة الواضحة الناطقة؟ وما عسيتم تقولون فيها؟ وقد سمى البلاد ووصف المعاطش والقفار البلاقع،

وما فجر فيها من العيون، وأجرى من الأنهار، وغرس فيها من أنواع الأشجار، وسمي العطاش المساكين من أهل البوادي والحجاز..) ولكنني أرى أن المقصود بهذه الألفاظ هي المعاني المجازية التي يمكن تأويل هذه الألفاظ إليها استئناساً بقرينة الحال والواقع، لا أن المقصود بهذه الألفاظ المعاني الحقيقية، يؤكد ذلك أن الأرض التي أشرقت بنور الرسالة المحمدية لا تزال منذ أن سكنها إسماعيل عليه السلام إلى يوم الناس هذا واد غير ذي زرع، كما قال ذلك الخليل عليه السلام، فلم تنعم بالأنهار، ولم تتفجر فيها العيون، ولم تنبت الزيتون والآس. ولعل المراد من قوله: إن المساكين والضعفاء يستسقون ولا ماء لهم أن هذا كناية عن سؤالهم الله أن يغيثهم بالرسالة، ويزكيهم بالكتاب والحكمة وينزل على قلوبهم السكينة والطمأنينة، امتداداً لدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام لما قال – كما أخبر بذلك الله عنه في محكم تنزيله - : (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم).

وقد أورد المهتدي الشيخ زيادة نصاً عن إشعياء يتضمن أن "دوما" – وهي إحدى البلاد التي عمرها أحد أبناء إسماعيل عليه السلام – تستغيث بلسان حالها إلى الله سبحانه وتعالى أن يرسل

إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ليخرجها من الظلمات إلى النـور. فعلى ذلك يتيسر تأويل بقية النص الوارد إلى المعاني المجازية، فيكون المراد بالأنهار والعيون، وازدياد الخير والنماء وتبدل حال القفار ... هو انتشار الرسالة، وعموم نور الإسلام، وكثرة العلماء والدعاة الذين يرد إليهم الناس لسؤالهم والاستفادة من علمهم الذي هو للروح كالماء للجسد. وقد يكون من حكمة الله أن تظل هذه النصوص بهذه الألفاظ، لأنها لو وردت ظاهرة لتلقفتها أيدي اليهود النصارى بالتحريف والتغيير.

وبناء على ذلك يكون هذا النص – سواء كان ظاهراً أم مؤولاً – دالاً على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه ذكر الضعفاء والمساكين في البادية العطشى بين الجبال والقفار، وقد كانت أمته قبل بعثته على هذه الحال من الضعف والمسكنة والبداوة والسكنى بين الجبال وفي القفار والأودية العطشى.

البشارة الحادية عشر: قول إشعاء في الفصل الحادي والعشرين: (لتسبحني وتحمدني حيوانات البر من بنات آوى حتى النعائم، لأني أظهرت الماء في البدو، وأجريت الأنهار في بلد أشيمون، لتشرب منها أمتي المصطفاة فلتشرب منه أمتي التي اصطفيتها) وما ورد في

هذه النبوة يؤكد ما جاء في النبوة السابقة، ويؤكد أيضاً تأويل الماء بالرسالة.

البشارة الثانية عشر: قول إشعياء في الفصل الثالث والعشرين متحدثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم: (اسمعي أيتها الجزائر، وتفهمي يا أيتها الأمم، إن الرب أهاب بي من بعيد، وذكر اسمي وأنا في الرحم، جعل لساني كالسيف الصارم وأنا في البطن، وأحاطني بظل يمينه، وجعلني في كنانته كالسهم المختار وخزنتي لسره، وقال لي: إنك عبدي. فصرفي وعدلي قدام الرب حقا، وأعمالي بني يدي إلهي، وصرت محمداً عند الرب، وبإلهي حولي وقوتي) قال المهتدي الطبري: فإن أنكر منكر اسم محمد في الباب. فليكن محموداً، فلن يجد إلى غير ذلك من الدعاوي سبيلاً.

البشارة الثالثة عشر: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين: (هكذا يقول الرب قدوس إسرائيل للذي كانت نفسه مسترذلة مهانة، ولمن كانت الأمم تستخف به، وأتباع السلطان يهينونه، ستقوم له الملوك إذا رأوه، وتسجد له السلاطين، لأن وعد الله حق، وهو قدوس إسرائيل الذي انتخبك واختارك، وهو الذي يقول أجبتك عند الرضى، وترث تواريث الخرابات، وتقول للأسرى: أخرجوا وانفكوا، وللمحبسين اظهروا وانطلقوا..

ويتوافى القوم من بلد شاسع بعيد: بعض من جهة الجربياء، وبعض من البحر، وبعض من بحر سنيم. فسبحي أيتها السماء، واهتزي أيتها الأرض فرحاً، وابتهجي أيتها الجبال بالحمد، فقد تلاقى الرب شعبه، ورحم المساكين من خلقه) ولم تتحقق هذه المعاني مجتمعة إلا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت أمته قبل بعثته أمة مسترذلة مستضعفة، وببعثته صلى الله عليه وسلم أذعنت لهم الملوك، واستسلمت لهم الجبابرة، وقضوا على الإمبراطوريات القائمة، وحكموا البلاد والعباد.

أما قوله: (جعلتك ميثاقاً للشعوب). فهو متفق مع قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) والذي جاء مصدقاً لما معهم هو محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه).

أما قوله: نوراً للأمم. فهو متفق أيضاً مع قوله تعالى: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون). وقوله تعالى: (الله نور السموات والأرض مثل نوره

كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء) وقوله تعالى: (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا).

أما قوله: (لتطمئن بك الأرض)، فهو مماثل لقوله تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم يذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

أما قوله: (وترث ثواريث الخرابات) فتستطيع أن تلمح منه وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالاستخلاف كما في قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ..). أما بقية هذه البشارة فهي تصوير لتوافد الأمة الإسلامية في موسم الحج، وإقامة شعائر الله في تلك البقاع الطاهرة المباركة..

البشارة الرابعة عشر: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين مخاطباً مكة وهاجر: (أنا رسمتك على كفي فأسوارك أمامي في كل وقت، وسيأتيك ولدك سراعا، ويخرج عنك من أراد أن يتحيّفك ويخرّبك، فارفعي بصرك إلى ما فوقك، وانظري فإنهم يأتونك ويجتمعون عن آخرهم إليك يقول الله مقسماً باسمه: إني أنا الحي،

لتلبسنهم مثل الحلة، ولتتزينين بالإكليل مثل العروس، ولتضيقن عنك قفارك وخراباتك، والأرض التي ألجئوك إليها، وضغطوك فيها من كثرة سكانها والراغبين فيها، وليهربن منك من كان يناويك ويهتضمك، وليقولن لك ولد عقمك: أيتها النزور الرقوب، إنه قد ضاقت بنا البلاد فتزحزحوا وانفرجوا فيها لتتسع في فيافيها، وستحدثين فتقولين: من رزقني هؤلاء كلهم، ومن تكفل لي بهم. وهذه البشارة لا تتطلب الشرح والتعليق لوضوحها، كما أنها لا تقبل أن تؤول على غير مكة أو هاجر، فمن الذي تكفل الله بحمايتها غير مكة؟ ومن الذي تكاثر عددها ونسلها، وضاقت عنهم أرضها، سوى هاجر ؟؟.

البشارة الخامسة عشرة: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين: (هكذا يقول الرب: ها أنا رافع يدي على الأمم، وناصب لهم آية، وهي أن الناس يأتونك بأبنائك على أيديهم، ويحملون بناتك على أكتافهم وتكون الملوك ظؤوتك، وعقائل نسائهم مرضعاتك، ويخرون على وجوههم سجداً على الأرض، ويلحسون تراب أقدامك، وتعلمين حينئذ أني أنا الرب الذي لا يخزي الراجون لي لدى). وفي هذا النص تقرير لخضوع الأمم لهذه الأمة الإسلامية، فيكون أبناؤها وبناتها خدماً لأبناء الأمة

الإسلامية، وتكون نساؤهم مرضعات لأطفال المسلمين، وقد حدث ذلك نتيجة الفتوحات الإسلامية التي أثمرت عن انتشار الرقيق من سبايا الكفار، كما أن في قوله: (ويلحسون تراب أقدامك). تصوير لحال الصغار والذل الذي يلازم دافع الجزية كما في قوله تعالى: (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). وقد وافق إشعياء داود في هذه النبوة، ولم لا، والمصدر واحد، والموضوع واحد، والوصف واحد، وهو قوله: (ويلحسون تراب أقدامك).

البشارة السادسة عشر: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين: (من الذي أقبل من أدوم؟ وثيابه أشد حمرة من البسر، وأراه بهياً في حلله ولباسه، عزيزاً لكثرة خيله وأجناده، وإني أنا الناطق بالحق والمخلص للأقوام، وإن لدينا ليوم الفتنة نكلاً، ولقد اقتربت ساعة النجاة، وحانت ساعة تخليصي، لأني نظرت فلم أجد من يعينني، وتعجبت إذ ليس من ينيب إلى رأيي، فخلصني عند ذلك ذراعي، وثبت بالغضب قدمي، ودست الأمم برجزي، وأشقيت حدودهم بغيظي واحتدامي، ودفنت عزهم تحت الأرض). تورد هذه النبوة بعضاً من صفاته صلى الله عليه وسلم في هيبته وجلاله، وطرفاً من ذكر بهائه، وإشارة إلى كثرة خيله

وأجناده، وأن بمقدمه تتخلص الأقوام من قيد العبودية لغير الله، وتقترب ساعة نجاتها، كما تضمنت هذه النبوة صفة البشرية قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم، وأنها لا تسمع لكلام الله، ولا تنصر المؤمنين به، فاستحقت بذلك غضب الله ومقته، فكانت بعثته صلى الله عليه وسلم عقاباً لأمم الكفر، إذ ناصبهم العداوة، وشهر السيف في وجوههم، وأرغمهم على الإذعان له، ودفن مجد الكافرين تحت الأرض.

وقد يقول قائل: إن هذه البشارة ذكرت أنه أقبل من أدوم. ومحمد صلى الله عليه وسلم كان في أرض الحجاز، فلا تنطبق عليه هذه النبوة. والجواب على ذلك: أن الصفات الواردة في بقية النبوة لا تنطبق إلا على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، أما قوله: أقبل من "أدوم" فمن المعلوم أن المتحدث في هذه البشارة هو أحد أنبياء بني إسرائيل المقيمين في أرضها، و"أدوم" إقليم يقع بين الحجاز وفلسطين، إذ القادم من الحجاز إلى فلسطين لا بد أن يعبر من خلال "أدوم"، ويجب أن لا نغفل أن المتحدث – وهو إشعياء – يتحدث عن أمر غيبي مستقبلي فلا يمكن إذاً أن يقول: من الذي أقبل من الحجاز. لأنه سيقال له: أين منا الحجاز ؟؟. ولكنه يتحدث عن هذا النبي القادم بيقين لا شك فيه، حتى لكأنه يراه في أطراف أرض

إسرائيل فيقول لهم: من هذا الذي أقبل من أدوم؟؟ وهو على يقين منه، لأنه ذكر صفاته، ولكنه طرح الخبر بصيغة التساؤل حتى تستشرف النفوس، وتهفو الأرواح للقائه.

البشارة السابعة عشر: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين عن الله عز وجل أنه قال مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: (إني جعلت اسمك محمداً، فانظر من محالك ومساكنك يا محمد، يا قدوس، .. واسمك موجود منذ الأبد) فذكر اسمه مرتين في هذه النبوة، وهذه مماثلة لما ورد في نبوة داود عليه السلام عنه في المزامير من قول داود: (في جبله قدوس ومحمد). فليس وراء هذا مجل لمدعٍ أن يتمحل أو يجادل.

وقال الطبري: (إن القدوس في اللغة السريانية: الرجل البر الطاهر ... فإن غالط مغالط فقال: (يا محمد يا قدوس)، إنما يقع على المساكن التي ذكرها. فإن الكتاب السرياني يكذبه، لأنه لو أراد بذلك المساكن لقال: يا قدوسين ومحمدين. ولم يقل قدوساً ومحمداً.

البشارة الثامنة عشر: قول إشعياء في الفصل الرابع والعشرين: (اعبروا اعبروا الباب، وردوا الطريق على الأمة، وسهلوا السبيل وذللوها، ونحوا الحجارة عن سبيلها، وارفعوا للأمة علماً ومناراً، فإن الرب أسمع نداءه من في أقطار الأرض، فقل لابنه صهيون إنه

قد قرب مجيء من يخلصك، وأجره معه، وعمله قدامه، ويسمون شعباً طاهراً، يخلصهم الرب، وتسمين أنت أيتها القرية التي أدال الله لها من أعدائها ولم يخذلها ربها) وهذه البشارة شاهدة ومؤكدة للبشارة السابقة لإشعياء التي سبق إيرادها تحت مسمى البشارة التاسعة.

ويماثل قول إشعياء أسمع نداءه من في أقطار الأرض. قوله صلى الله عليه وسلم عن هذا الدين: (لا يبقي على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام، بعز عزيز، أو بذل ذليل: إما يعزه الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم الله فيدينون لها.

أما قوله: فقل لابنة صهيون إنه قد قرب مجيء من يخلصك. فهو شاهد على أن هذا المخلص هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه ذكر شيئا من صفاته، وهو أن أجره معه فهو لا يبتغي على رسالته أجراً من أحد سوى الله، كما أنه لا يعمل لدنياه بل يعمل لآخرته فعمله أمامه، ولم تتخلص ابنة صهيون – ولعل ذلك تعبير عن بيت المقدس – من ربقة السيطرة اليهودية، وضلال الوثنية النصرانية إلا على يد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فهو الذي ألبسها حلة الإيمان، وكساها رونق التوحيد، وكشف عنها ستار الجهالة. ويؤكد اختصاص هذه الأمة بهذه

البشارة قوله: (ويسمون شعبا طاهراً ... وتسمين أيتها القرية التي أدال الله لها من أعدائها). فذكر حالهم وهو الطهارة، ولعنايتهم به جعله اسماً لهم، وهذا موافق لقوله ﷺ: (أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء). وأشار إلى موطنهم وهو مكة، فهي القرية وهي أم القرى.

البشارة التاسعة عشر: قول إشعياء في الفصل السادس والعشرون مخاطباً هاجر عليها السلام: (سبحي أيتها النزور الرقوب، واغتبطي بالحمد أيتها العاقر، فقد زاد ولد الفارغة المجفية على ولد المشغولة الحظية. وقال لها الرب أوسعي مواضع خيامك، ومدي ستور مضاريك، لأنك لا تنفسي ولا تضني، بل طوّلي أطنابك، واستوثقي من أوتادك، من أجل أنك تتبسطين وتنتشرين في الأرض يميناً وشمالاً، وترث ذريتك الأمم، ويسكنون القرى المعطلة اليبات). فذكر حال هاجر عليها السلام. وبشر هاجر بهذه الآمال العظيمة التي تستحق الحمد والشكر والاغتباط، وما ينتظر ذريتها من التوسع والسيطرة والغلبة على سائر الأمم، وبمقارنة هذا الوعد الذي وعد به إشعياء هاجر عليها السلام – مع الفتوحات التي تحققت للأمة الإسلامية على أيدي صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد أنه قد تحقق فعلاً، وليس بعد شهادة الواقع

وتصديقه لهذه النبوة مجال لمجادل أن يجادل أو يغالط فيدعي أن هذه البشارة لا تصدق هنا، وأنها دالة على قوم آخرين .. ويكفي في هذه النبوة حجة ودليلاً أنه نص على أن أبناء المجفية قد زادوا على أبناء المشغولة الحظية، ومن المجفية إلا هاجر؟ ومن الحظية إلا سارة؟. ولم تحصل هذه الزيادة، ولم تتحقق هذه الغلبة إلا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

البشارة العشرون: قال إشعياء في الفصل الثامن والعشرين مخاطباً هاجر عليها السلام: (أيتها المنغمسة المتغلغلة في الهموم التي لم تنل حظوة ولا سلوا، إن جاعل حجرك بلوراً .. ويعرفني هنالك جميع ولدك ولا ينكرونني، وأعلم أبناءك بالسلم، وتكونين مزينة بالصلاح والبر، فتنحي عن الأذى والمكارة، لأنك آمنة منها، فانحرفي عن الانكسار والانخذال فلن يقرباك، ومن انبعث من بين يدي فإليك يكون وفيك حلوله، وتصيرين وزراً وملجأً لقاطنيك وساكانك). قال الطبري: (فأي شهادة أعظم من شهادة الله لهم أنهم جميعاً يعرفونه ولا يجهلونه؟ وأنه صيّر بلدهم وزراً وملجأً للناس، أي حرماً آمناً).

البشارة الواحد والعشرون: قول إشعياء في الفصل الثامن والعشرين: (يا معشر العطاش توجهوا إلى الماء والورود، ومن ليس

له فضة فليذهب ويمتار ويستسقي ويأكل من الخمر واللبن بلا فضة ولا ثمن). قال المهتدي الطبري: (فهذا من نبوة إشعياء دال على ما أنعم الله به على ولد هاجر من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أنهم صائرون إلى ما وعدهم الله تعالى في الآخرة من أنهار من خمر، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين. فانظروا إلى هذه المشاكلة والموافقة التي بين النبوتين جميعاً). وهذا إشارة منه إلى قوله تعالى: (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم).

البشارة الثانية والعشرون: قول إشعياء في الفصل الثامن والعشرين: (إني أقمتك شاهداً للشعوب، ومدبراً وسلطاناً للأمم، لتدعو الأمم الذين لم تعرفهم، وتأتيك الأمم الذين لم يعرفوك هرولة وشداً، من أجل الرب إلهك قدوس إسرائيل الذي أحمدك، فاطلبوا ما عند الرب، فإذا عرفتموه فاستجيبوا له، وإذا قرب منكم فليرجع عن خطيئته، والفاجر عن سبيله، وليرجع إليّ لأرحمه، ولينب إلى إلهنا الذي عمّت رحمته وفضله) قال الطبري: (فقد سمي النبي صلى الله عليه وسلم باسمه، وقال: إن الله جعلك

محمداً. فإن آثر المخالف أن يقول: ليس بمحمد، بل محمود وافقناه فيه، لأن معناهما واحد).

أما قوله: (أقمتك شاهداً للشعوب). فهو مماثل لقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) وقوله عز وجل: (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس). وقوله عز من قائل: (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً).

أما قوله: سلطاناً للأمم. فيحتمل أن يكون المراد منه المعنى المتبادر للذهن وهو السيادة والقيادة، وقد تحققت له هذه على الأمم في حياته وحياة أصحابه. ويحتمل أن يكون المراد منه أنه سلطان بمعنى حجة على الأمم، لأن السلطان في لغة التنزيل تأتي بمعنى حجة.

وأما قوله: (لتدعو الأمم الذين لم تعرفهم). فقد تحقق ذلك بإرساله صلى الله عليه وسلم الرسل والكتب إلى الملوك كهرقل وكسرى والمقوقس وغيرهم ممن لا يعرفهم كما هو مشهور في كتب السنة والسيرة.

وأما قوله: تأتيك الأمم الذين لم يعرفوك هرولة وشداً. فمصداق ذلك في انضواء الأمم التي لم تكن تعرفه من قبل، والتي

لا تعد ولا تحصى تحت لوائه، والإذعان لأمره. كما أن هذه البشارة لا تنطبق على الأنبياء قبله، لأنهم دعوا أقوامهم وهم يعرفونهم، واستجابت لهم الأمم التي تعرفهم، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد دعا من لم يعرفه، واستجاب له من لا يعرفه.

وبقية النص تتعلق بالرحمة والمغفرة والتوبة، وهي معان ظاهرة في شريعته، أظهر من الشمس في رائعة النهار، ولا يمكن أن تكون هذه البشارة دالة على اليهودية أو على النصرانية لما يأتي.

أن اليهودية تعتقد أنها دين خاص ببني إسرائيل، وهذه البشارة قد تضمنت أنه يدعو الأمم ، وتأتيه الأمم، وهذا يناقض اعتقادها.

أن هذا النص تضمن أن صاحب هذه الرسالة يبشر بالتوبة والمغفرة والرحمة، وهذا يخالف اعتقاد اليهود والنصارى: فاليهود تعتقد أن من حق الكاهن المغفرة ومحو الخطايا كما أن النصرانية تعتقد أن البشرية كانت مثقلة بالخطيئة الموروثة التي رفعت عنهم بعد صلب المسيح – كما زعموا – ثم غفلت النصرانية عن كونها محت الخطيئة الموروثة فمنحت رجال الدين حق مغفرة الخطايا.

المسيحية ديانة خاصة ببني إسرائيل، لأن المسيح عليه السلام أرسل إلى بني إسرائيل حيث يقول لتلاميذه: (إلى طريق أمم لا

تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

البشارة الثالثة والعشرون: قول إشعياء في الفصل الثامن والعشرين عن الله سبحانه وتعالى أنه قال: (إني أقسمت بنفسي وأخرجت من فمي كلمة الحق التي لا خلف لها ولا تبديل، وإنه تخرّ لي كل ركبة، ويقسم بي كل لسان، ويقولون معا: إن النعمة من عند الرب). قال المهتدي الطبري: (فمن هذه الأمة التي تقسم باسم الله؟ ومن ذا الذي يخر على الركب لاسم الفرد الواحد، ويحدث بنعم الله صباحاً ومساء، ويفرده بالدعاء والابتهال غير هذه الأمة ؟ فأما جماعة النصارى فإنهم ينسبون النعم إلى المسيح).

البشارة الرابعة والعشرون: قال إشعياء في الفصل الثامن والعشرين: (إن الله نظر ولم ير عدلاً، وأنكر ذلك، ورأى أنه ليس أحد يعين على الحق، فعجب الرب منه، وبعث وليه فأنقذه بذراعه، ومهد له بفضله، فاستلأم العفاف كالدرع، ووضع على رأسه سنور الإعانة والفلح، ولبس لباس الخلاص، لينتقم من المبغضين له والمعادين، ويجازي أهل الجزائر جزاءهم أجمعين، ليتقي اسم الله في مغارب الأرض، وليخشع في مشارقها لجلاله) وفي هذه النبوة تصوير لواقع البشرية قبل مبعثه عليه الصلاة

والسلام، كما أن فيها إشارة إلى اختيار الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ووصفاً لجهاده صلى الله عليه وسلم الكافرين والمعاندين، وبياناً للنتيجة التي تحققت على يديه وهي: دخول الأمم في دين الله أفواجاً، حتى شمل ذلك المشرق والمغرب.

البشارة الخامسة والعشرون: قول إشعياء مخاطباً هاجر عليها السلام وبلادها وهي مكة: (قومي وأزهري مصباحك فقد دنا وقتك، وكرامة الله طالعة عليك، فقد تخللت الأرض الظلام، وغطي على الأمم الضباب، فالرب يشرق عليك إشراقاً، وتظهر كرامته عليك، وتسير الأمم إلى نورك، والملوك إلى ضوء طلوعك، ارفعي بصرك إلى ما حولك وتأملي، فإنهم سيجتمعون كلهم إليك ويحجونك، ويأتيك ولدك من بلد بعيد، وتحج إليك عساكر الأمم حتى تعمرك الإبل المربلة، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع إليك، ويساق إليك كباش مدين وكباش أعفا، وتأتيك أهل سبأ ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه، وتسير إليك أغنام قيدار كلها، وتخدمك رخلات نبايوت، ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني، وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً). فذكر هاجر وذكر البلد، وصرح بالحج وما يصاحبه من توافد الأمم، وسوق الهدي، كما صرح بأسماء بعض هذه الأمم الوافدة إلى الحج كأهل سبأ ومدين وغيرهما. أما

قوله: (قيدار ونبايوت). فقال الطبري: هما من أولاد إسماعيل عليه السلام.

البشارة السادسة والعشرون: قال إشعياء في الفصل الثامن والعشرين: (سيترجاني أهل الجزائر، ومن في سفن تارسيس كما فعلوا من قبل، ويوردون عليك أبناءك من بلد بعيد ومعهم فضتهم وذهبهم، من أجل اسم الرب إلهك قدوس إسرائيل الذي أحمدك وأكرمك، ويبني أبناء الغرباء سورك، وملوكهم يخدمونك، وتفتح أبوابك في كل وقت وأوان من آناء الليل والنهار فلا تغلق، ويدخل إليك أرسال الأمم، ويقاد إليك ملوكهم أسرى، لأن كل أمة ومملكة لا تخضع لك تتبدد ستورها، وتصطلم الشعوب بالسيف اصطلاماً، وتأتيك الكرامة من صنوبر لبنان البهي، ومن أبهلها ليبخر به بيتي، ويعظم به موضع قدمي ومستقر كرامتي، وتأتيك أبناء القوم الذين كانوا يذلونك، ويقبل آثار أقدامك جميع من كان يؤذيك ويضطهدك، وأجعلك كرامة إلى الأبد، وغبطة وفرحاً إلى دهر الداهرين، وسترضعين ألبان الشعوب، وستصيبين من غنائم الملوك، وتتمززين من غاراتك عليهم ... وأجعل السالمة مدبرك، والصلاح والبر سلطانك، ويكون الرب نورك ومصباحك إلى الأبد). فلم تتحقق هذه الصفات مجتمعة إلا لهذه الأمة الإسلامية،

فتغلبت على الأمم، وقادت ملوكهم أسرى، وتبدد من أمامها الأمم التي لم تذعن لها. وكتب الله لها الغلبة والظهور إلى قيام الساعة وهو ما أشار إليه أشعياء في قوله: إلى دهر الداهرين .. إلى الأبد. وهو مماثل لقوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض). وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال ناس من أمتي ظاهرين، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون).

البشارة السابعة والعشرون: قال إشعياء في الإصحاح الثاني والأربعين: (إن عبدي المجتبى عندي، ابن حبيبي اخترته وأرسلته إلى الأمم بأحكام صادقة).

وقد أورد المهتدي الترجمان وغيره هذا النص بصورة أطول، واشتمل على صفات هي ألصق بمحمد صلى الله عليه وسلم من غيره وهو قوله: (إن الرب سبحانه وتعالى سيبعث في آخر الزمان عبده الذي اصطفاه لنفسه، ويبعث له الروح الأمين، يعلمه دينه، ويعلم الناس ما علمه الروح الأمين، ويحكم بين الناس بالحق، ويمشي بينهم بالعدل، وما يقول للناس هو نور يخرجهم من الظلمات التي كانوا فيها، وعليها رقود، وقد عرّفتكم ما عرفني الرب سبحانه قبل أن يكون). فمحمد صلى الله عليه وسلم هو

المبعوث في آخر الزمان، وهو الذي نزل عليه الروح الأمين، وهو الذي حكم بين الناس بالعدل وأخرجهم من الظلمات إلى النور.

البشارة الثامنة والعشرون: قول إشعياء في الإصحاح الثاني والأربعين: (لترفع البرية ومدنها صوتها، والديار التي سكنها قيدار، ولتترنم سالع من رؤوس الجبال، ليهتفوا ليعطوا مجداً، ويخبروا بتسبيحه في الجزائر الرب كالجبار، يخرج كرجل حروب ينهض غيرته، يهتف ويصرخ على أعدائه). تضمن هذا النص الإشارة إلى مساكن العرب وهم ذرية قيدار أحد أبناء إسماعيل عليه السلام، والتصريح بذكر جبال المدينة المنورة وهو سالع، إذاً فلا تقبل هذه البشارة أن تنطبق على غير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقبل الانتقال إلى نبوات إرميا لا بد لي من الإشارة على أن النبوات التي أوردها إشعياء تكاد أن تأخذ طابعاً معيناً وهو: المباشرة في الطرح والتصريح بذكر الأسماء كمحمد صلى الله عليه وسلم، وإسماعيل، ومكة والعرب، أو الإشارة إلى صفته وصفات أمته وأصحابه كذكر الدروع والسيوف والجهاد .. كما مر سابقاً.

سادساً: بشارات إرميا:

البشارة الأولى: خاطب الله بها النبي صلى الله عليه وسلم على لسان إرميا في الفصل الأول فقال: (من قبل أن أصورك في الرحم عرفتك، ومن قبل أن تخرج من البطن قدستك، وجعلتك نبياً للأمم، لأنك بكل ما آمرك تصدع، وإلى كل من أرسلك تتوجه، فأنا معك لخلاصك، يقول الرب: وأفرغت كلامي في فمك إفراغاً، فتأمل وانظر، فقد سلطتك اليوم على الأمم والممالكات، لتنسف وتهدم وتتبر وتسحق، وتغرس من رأيت) قال المهتدي الطبري عن هذه البشارة: (هي شبيهة بنبوات إشعياء وغيره) وهو يقصد قول إشعياء: (إن الرب أهاب بي من بعيد، وذكر اسمي وأنا في الرحم، وجعل لساني كالسيف الصارم) وهذه هي البشارة الرابعة عشرة من بشارات إشعياء حسب ترتيب هذا البحث.

ويتفق أول هذه البشارة مع قوله تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بالحق مصدقاً لما معهم بدليل قوله تعالى عنه: (بل جاء بالحق وصدّق المرسلين) وقوله تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه).

أما قول إرميا: (لأنك بكل ما أمرك تصدع). فيصدقه قوله تعالى: (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين). ويشهد لقوله: (وأفرغت كلامي في فمك). قوله تعالى: (وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى). وبقية النص متوافق مع البشارات التي تحدثت عن جهاده صلى الله عليه وسلم.

البشارة الثانية: قال إرميا في الفصل التاسع عشر مخبراً عن الله عز وجل أنه قال: (إني جاعل بعد تلك الأيام شريعتي في أفواههم، وأكتبها في قلوبهم، فأكون لهم إلها، ويكونون لي شعبا، ولا يحتاج الرجل أن يعلم أخاه وقريبه الدين والملة، ولا إلى أن يقول له أعرف الرب، لأن جميعهم يعرفونه صغارهم وكبارهم، وأنا أغفر لذلك ذنوبهم، ولا أذكرهم بخطاياهم). قال المهتدي الطبري معلقاً على هذه النبوة: (وقد صدق وعد الله، وازدرع حبه في قلوب هذه الأمة صغارها وكبارها، وأنطق ألسنتهم بشرائعه وتحاميده، وكل عارف بالله مؤمن به). واقرأ قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)، وقوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله). وقوله عز من قائل (والذين آمنوا أشد حبا لله)،

وقوله عز وجل: (يحبهم ويحبونه) وتأمل ما وصف الله به هذه الأمة في هذه النصوص من صفات خيّرة مباركة، فستجد أنها مماثلة لما وصفها الله به على لسان إرميا.

البشارة الثالثة: قول إرميا في الإصحاح الثامن والعشرين: (النبي الذي تنبأ بالسلام، فعند حصول كلمة النبي عرف ذلك النبي أن الله أرسله حقاً). هذه النبوة أوردها المهتدي عبد الأحد داود بالمعنى، ويرى أنها بمعنى: (إن النبي الذي تدور نبوءاته حول الإسلام "شالوم" عند ورود كلمة النبي، ذلك النبي المعروف أنه المرسل من قبل الله الحق) وبعد دراسته للنص السابق خرج منه بالنتائج التالية:

أنه لا يمكن أن يكون النبي صادقاً إلا إذا بشر بدين الإسلام ونشره، (إن الدين عند الله الإسلام).

من الحقائق المسلّم بها أن كلمة "شالوم" العبرية و "سلام" السريانية و "إسلام" العربية كلها من نفس الجذر السامي "شلام" وتحمل نفس المعنى، وهذا أمر يعترف به جميع علماء اللغات السامية، وفعل "شلام" يدل على الخضوع أو الاستسلام، ولا يوجد نظام ديني في العالم يحمل اسماً أو وصفاً أفضل وأشمل من الإسلام. فالدين الحق لله الحق.

أن إرميا هو النبي الوحيد قبل المسيح عليه السلام الذي استخدم كلمة "شالوم" بمعنى الدين، وهو النبي الوحيد الذي يستخدم هذه الكلمة بهدف إثبات صدق أحد من رسل الله. أي أن إرميا هو الوحيد قبل المسيح الذي جعل الإسلام هو المقياس الذي يعرف من خلاله النبي الصادق من الكاذب، وإلا فإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وكافة الرسل عليهم السلام كانوا مسلمين، واتخذوا الإسلام ديناً.

أن دين الإسلام – أي الإسلام – هو وحده القادر على تحديد الخصائص المميزة للنبي الصادق من النبي الكاذب، كما أنه لا يوجد في العالم دين يتبنى ويدافع عن هذه الوحدانية المطلقة سوى الإسلام.

البشارة الرابعة: قال إرميا في الفصل الثاني والثلاثين مخاطبا النبي صلى الله عليه وسلم: (اعدوا لي آلات الحرب، فإني أبدد بك الشعوب، وأبدد بك الخيل وفرسانها وأبدد بك الطغاة والولاة، وأجازي بابل، وجميع سكان بلاد الكلدانيين بجميع أوزارهم التي ارتكبوها. هذا قول الرب). وبمقارنة النهاية التي آلت إليها الإمبراطورية الفارسية على أيدي المسلمين بما ورد في هذه النبوة، نجد أن هذا الوعد لهذه الأمة الإسلامية، وذلك الوعيد المتوعد به

الأمة الفارسية قد تحقق فعلا، وأقامه الله شاهداً من شواهد التاريخ مصدقاً لما وعد الله به المؤمنين على ألسنة رسله وأوليائه.

سابعاً: بشارة حزقيال:

قال حزقيال في الفصل التاسع: (إن أمّك مغروسة على الماء بدمك، فهي كالكرمة التي أخرجت ثمارها وأغصانها من مياه كثيرة، وتفرعت منها أغصان كالعصى قوية مشرفة على أغصان الأكابر والسادات، وارتفعت وبسقت أفنانهن على غيرهن، وحسنت أقدارهن بارتفاعهن والتفاف سعفهن، فلم تلبث الكرمة أن قلعت بالسخط، ورمى بها على الأرض، وأحرقت السمائم ثمارها، وتفرق قواها، ويبس عصي عزها، وأتت عليها النار فأكلتها، فعند ذلك غرس في البدو وفي الأرض المهملة العطشى، وخرجت من أغصانه الفاضلة نار أكلت ثمار تلك حتى لم يوجد فيها عصا قوية بعدها ولا قضيب ينهض بأمر السلطان). فتأمل ما في هذا النص من بلاغة في التصوير، ودقة في التعبير، فشبه الأمة اليهودية إبان عزها وسؤددها – لما كانت تعيش تحت مظلة الأنبياء – بالكرمة الحسنة، وبعد أن نزعت منها النبوة، وأغضبت ربها استأصل شأفتها، واقتلع جذورها، فذرتها الرياح، وأكلتها النار، وانتهى مجدها. واستبدل الله بها أمة هي خير أمة أخرجت للناس،

وشبهها بشجرة قد غرست في أرض البادية العطشى من الماء المعنوي والحسي، فأثمرت هذه الشجرة الأغصان الفاضلة التي قضت على تلك الشجرة الأولى ولم تبق فيها عصا ولا قضيباً. وهذا حال الأمة اليهودية والأمة الإسلامية التي أشرق عزها، وتوسع نفوذها، حتى شمل بلاد بني إسرائيل وغيرها.

البشارة الأولى: قال دانيال في الإصحاح السابع: (إن ملكوت الله وعظمة المملكة الممتدة تحت رقعة السماء كلها سوف تعطي لعباد الله تعالى وأوليائه. وسيكون ملكوتهم هذا مملكة أبدية، تخدمها جميع الممالك الأخرى، وتعمل بطاعتها) إن هذه البشارة لتدل بوضوح على أن في الإسلام توجد وحدة لا انفصام لها بين الدين والدولة.

فالإسلام ليس ديناً فحسب، بل أيضاً المملكة الدنيوية. ولا بد من إلقاء نظرة خاطفة على التدرج التأريخي لهذا الملكوت حتى بلغ غايته، واكتمل بناؤه على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا التدرج هو كما يلي:

أن الإسلام قبل محمد صلى الله عليه وسلم لم تمثله دولة تحكم باسمه وتدافع عنه، وإنما كان الإسلام ديناً قائماً في حياة الأقوام التي آمنت به، ولم تقم له دولة في حياتهم، بل كان السلطان

والقوة في أيدي الكفرة الوثنيين، في العموم الغالب، ويستثنى من ذلك فترات حكم كل من سليمان وداود ويوشع عليهم السلام.

إن المسيح عليه السلام قد بشر تلاميذه باقتراب ملكوت الله. وهذا الملكوت يعني وجود دين ومجتمع قوي من المؤمنين بالله، وهذا المجتمع يتسلح بالإيمان بالله وبالسيف لقتال أعدائهم الذين يريدون أن يحولوا بينهم وبين تبليغ كلمة الله إلى البشرية، أو بمعنى أوضح: إن ملكوت الله هو الإسلام. إذاً فالمسيح عليه السلام بشر تلاميذه باقتراب ظهور الإسلام على يد محمد صلى الله عليه وسلم، وأكد لليهود أن النبي الذي تنتظره اليهود ليس يهودياً، ولا من نسل داود عليه السلام، بل هو من نسل إسماعيل عليه السلام واسمه أحمد، وسيقيم الدولة الإسلامية وفق المنهج الذي ارتضاه الله لهم، وهذه الدولة مؤيدة بنصر الله ثم بسواعد المجاهدين في سبيله.

طبيعة هذا الملكوت وتكوينه: يتألف هذا الملكوت من المؤمنين بالله الذين يلازمهم ذكر الله سبحانه وتعالى في كل أحوالهم، فلا يقومون بأي عمل إلا ويبدءونه بذكر الله، ويحمدونه بعد الانتهاء منه.

وطبيعة هذا الملكوت أنه يتكون في جوهره من شقين: الأول: دين صحيح قائم على وجه الأرض وفق المنهج الذي ارتضاه الله في كتابه القرآن. والثاني: دولة إسلامية تقوم على هذا المنهج ويتصف المؤمنون بهذا المنهج بما يأتي:

أ) أنهم يكونون أمة واحدة تربطهم أخوة واحدة هي أخوة الدين.

ب) أنهم كما وصفهم دانيال: جماعة القديسين. وهذه صفة تنطبق على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والأنصار وعلى سائر المؤمنين بالله.

ديمومة هذه المملكة ورفعة شأنها: هذه الحقيقة أكدها دانيال بقوله: إن جميع الأمم تحت قبة السماء تخدم شعب الأبرار العامل بطاعة الله. ولم تتحقق هذه الصفة – وهي خدمة الأمم – إلا للأمة الإسلامية التي خدمتها الأمم في مشارق الأرض ومغاربها. ومن دواعي استمرار هذه الأمة وديمومتها أنها لا تعرف التمييز الطبقي في تشريعاتها بين أفرادها فالكل سواء أمام شرع الله، لا فرق بين الأبيض والأسود أو بين الحاكم والمحكوم.

البشارة الثانية: قال دانيال: (طوبى لمن أمل أن يدرك الأيام الألف والثلاثمائة والخمسة والثلاثين). قال المهتدي الطبري:

(فأعملت فيه الفكر فوجدته يوحي إلى هذا الدين، وهذه الدولة العباسية خاصة، وذلك أنه لا يخلو دانيال من أن يكون أراد بهذا العدد: الأيام والشهور والسنين، أو سرا من أسرار النبوة بخرجه الحساب. فإن قال قائل: إنه أراد به الأيام. فإنه لم يحدث لبني إسرائيل، ولا في العالم بعد أربع سنين فرح ولا حادثة سارة، ولا بعد ألف والثلاثمائة وخمسة وثلاثين شهراً، فإن ذلك مائة وإحدى عشر سنة وأشهر. فإن قالوا: عني به السنين. فإنما ينتهي ذلك إلى هذه الدولة، لأن من زمن دانيال إلى المسيح نحواً من خمسمائة سنة... ومن المسيح إلى سنتنا هذه ثمانمائة وسبع وستون سنة ينتهي ذلك إلى هذه الدولة العباسية منذ ثلاثين سنة، أو يزيد شيئاً).

وبمقارنة هذا التاريخ الميلادي بالتاريخ الهجري تكون السنة التي أشار إليها هي سنة ٢٥٣هـ تقريباً. ولعل في هذه البشارة سراً عجيباً وهو الإشارة إلى بلوغ الدولة الإسلامية غاية مجدها، وكمال سيطرتها، ونهاية فتوحاتها.

ثامناً: بشارات هوشاع:

البشارة الأولى: قول هوشاع: (قال الرب: إني أنا الرب الإله الذي رعيتك في البدو، وفي أرض خراب قفر غير مأهول، ليس بها

أنيس). قال المهتدي الطبري: فلسنا نعرف أحداً رعاه الله في البدو، وفي أرض قفر غير النبي صلى الله عليه وسلم.

البشارة الثانية: قال هوشاع يصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم: (إنها أمة عزيزة لم يكن مثلها قط ولا يكون، وإن النار تحرق أمامها، وتتوقد خلفها الضرائر). ولم تنل أمة من العز والمنعة والسلطان في فترة طويلة وعلى رقعة واسعة كما نالت الأمة الإسلامية.

تاسعاً: بشارة ميخا:

قال ميخا: (إنه يكون في آخر الأيام جبل بيت الرب مبنياً على قلال الجبال، وفي أرفع رؤوس العوالي، وتأتيه جميع الأمم، وتسير إليه أمم كثيرة، وهم يقولون: تعالوا نطلع جبل الرب). ويرى الطبري أن هذا النص يتضمن صفة مكة. بينما يرى الترجمان أن الجبل المشار إليه هو جبل عرفات، وأن الأمة المشار إليها في النص الذي أورده الترجمان هي الأمة الإسلامية. وعلى كلا الحالين فهذه النبوة شاهدة ومبشرة بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومبينة صفة أمته، ومشاعر ملته.

وقد حرف آخر هذا النص في الطبعة التي بين يدي فصار هكذا (... هلم نصعد إلى جبل الرب، وإلى بيت إله يعقوب من طرقه،

ونسلك في سبيله، لأنه من صهيون تخرج الشريعة، ومن أورشليم كلمة الرب). وقد أعماهم الله عن تحريف أول هذا النص، حتى يبقى شاهداً على الحقيقة، دالاً على النبوة. وقد توقع المهتدي الطبري مثل هذا التحريف فقال: عني بيت المقدس. فكيف يصح له ذلك؟ وقد بين الله أن يكون ذلك في آخر الأيام، وكان بيت المقدس في زمان هذا النبي موجوداً، وإنما تنبأ النبي على شيء يحدث، لا على ما كان ومضى).

عاشراً: بشارة حبقوق:

قال حبقوق: (إن الله جاء من التيمن، والقدوس من جبل فاران. لقد انكسفت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، ويكون شعاع منظره مثل النور، يحوط بلده بعزه، وتسير المنايا أمامه، وتصحب الطير أجناده. قام فمسح الأرض، ثم تأمل الأمم وبحث عنها، فتضعضعت الجبال القديمة، واتضعت الروابي الدهرية، وتزعزعت ستور أهل مدين، ولقد حاز المساعي القديمة، وغضب الرب على الأنهار. فرجزك في الأنهار، واحتدام صولتك في البحار، ركبت الخيول، وعلوت مراكب الإنقاذ والغوث، وستترع في قسيك إغراقاً وترعاً، وترتوي السهم بأمرك يا محمد ارتواءً، وتحرث الأرض بالأنهار. ولقد رأتك الجبال فارتاعت،

وانحرف عنك شئيوب السيل، ونعرت المهاوي نعيراً ورعياً، ورفعت أيديها وجلاً وخوفاً، وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في بريق سهامك ولمعان نيازكك، تدوخ الأرض غضباً، وتدوس الأمم رجزاً، لأنك ظهرت لخلاص أمتك، وإنقاذ شريعة آبائك). هذا النص أورده المهتدي الطبري بهذه الصيغة، وورد لدى كل من الشيخ زيادة، والترجمان، وإبراهيم خليل أحمد: بصور مختلفة طولاً وقصراً، مع اختلاف يسير في العبارات، واتفاقهم على محتوى السطر الأول. واتفق أيضاً كل من الترجمان والشيخ زيادة وإبراهيم خليل على أن المراد بجبال فاران هي جبال مكة. وأشار الطبري والشيخ زيادة إلى أن هذه النبوة موافقة لنبوة موسى عليه السلام الواردة في سفر التثنية وهي قوله: (جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، وتلألأ من جبال فاران). كما أشار الشيخ زيادة إلى أن هذه النبوة موافقة لنبوة أشعياء التي ذكر فيها أن حوافر خيله مثل الصوان الذي ينبعث منه الشرر. وقد سبق الحديث عنهما. وأكد المهتدي الطبري والشيخ زيادة على أن هذا الوصف الوارد في هذه النبوة عن الخيل والسهام والسيوف، إنما ينطبق على جيوش محمد صلى الله عليه وسلم وقال المهتدي الطبري بعد أن أورد تطابق هذه النبوة مع حالة صلى الله عليه

وسلم. (فإن لم يكن هو الذي وصفتا – أي محمد صلى الله عليه وسلم – فمن إذاً ؟ لعلهم بنو إسرائيل المأسورون المسببون، أو النصارى الخاضعون المستسلمون. وكيف يكون ذلك وقد سمي فيها النبي مرتين ووصف عساكره وحروبه ...).

وإن الاستفاضة في تأمل هذه النبوة ، واستخراج ما أشارت إليه، وبسطه، لتعجز عنه هذه الصفحات ، لأنه يستغرق كتاباً، وليس المجال هنا مجال البسط والتوسع، وإنما هو الاستدلال والإشارة فقط. ولكن استوقفتني بعض العبارات التي اشتمل عليها هذا النص، ولم أر هؤلاء الذين مر ذكرهم تعرضوا لها، فأردت أن أقف عندها وقفة يسيرة تكشف ما في النفس، ولا تطيل البحث. وأول هذه العبارات هي قوله: (قام فمسح الأرض). وهذه العبارة تحاكي قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها ...) أما الثانية فهي قوله: (لأنك ظهرت لخلاص أمتك، وإنقاذ تراث آبائك). فمن أباؤه؟ إنهم إبراهيم وإسماعيل، وما هو إرثهم ؟ هل هو الملك أم الأموال أم ماذا ؟؟ إنه التوحيد والرسالة قال تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) وقال تعالى: (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم

والذين آمنوا معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله).

الحادي عشر: بشارة صفتيا:

قال صفتيا: (يقول الرب: أيها الناس ترجوا اليوم الذي أقوم فيه للشهادة، فقد حان أن أظهر حكمي بحشر الأمم كلها وجميع الملوك، لأصب عليهم رجزي، وأليم سخطي، فستحترق الأرض كلها احتراقاً بسخطي ونكيري. هناك أجدد للأمم اللغة المختارة، ليذوقوا اسم الرب جميعاً، ويعبدوه في ربقة واحدة معاً ويأتون بالذبائح في تلك الأيام من معابر أنهار كوش). قال المهتدي الطبري معلقاً على هذه النبوة: وهذا صفنيا قد نطق بالوحي وأخبر عن الله بمثل ما أدى أصحابه، ووصف الأمة التي تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتجتمع على عبادته، وتأتيه بالذبائح من سواحل السودان ومعابر الأنهار واللغة المختارة هي اللسان العربي المبين ... وهي التي قد شاعت في الأمم فنطقوا بها.

الثاني عشر: بشارة حجي:

قال حجي: (ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي "حمدا" "Himada" لكل الأمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، هكذا قال رب الجنود، ولي الفضة، ولي الذهب، هكذا يقول رب

الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول. هكذا يقول رب الجنود، وفي هذا المكان أعطى السلام. هكذا يقول رب الجنود). وقد ترجمت كلمتي "حمدا" و "شالوم" العبريتين إلى الأمنية، أو المشتهى، أو السلام. وعندئذ تفقد هذه النبوة ما اشتملت عليه من معنى وتصبح ولا قيمة لها. ولكن الترجمة الصحيحة لهذه العبارات هي أن "شالوم" أو "شلاما" و "حمدا" تترجم إلى الإسلام، وأحمد. وتؤدي نفس الدلالة التي تؤديها تلك العبارات السابقة وبنفس الأهمية. وبين المهتدي عبد الأحد داود أصول هذه الكلمات ووضح ما ذهب إليه من أنها تترجم إلى الإسلام، وأحمد، فقال:

أ) إن كلمة "حمدا" تقرأ باللغة العبرية الأصلية هكذا: (في يافوا حمداث كول هاجوييم) والتي تعني حرفياً: (وسوف يأتي حمداً لكل الأمم). وعليه فإن الحقيقة الناصعة تبقى بأن كلمة "أحمد" هي الصيغة العربية لكلمة "حمدا" العبرية، وهذا التفسير تفسير قاطع لا ريب فيه. ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة الصف: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوارة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد).

ب) إن كلمة "شالوم" و "شلاما" بالعبرية و "سلام" و "إسلام" باللغة العربية هما مشتقتان من أصل واحد، وتعنيان نفس المعنى وهو السلام والإذعان أو الاستسلام.

وبعد هذا التوضيح من قبل هذا المهتدي لهذه الألفاظ ذكر عدداً من البراهين التي استند إليها فيما ذهب إليه، وهي:

إن القرابة والعلاقة والتشابه بين هذين التعبيرين "حمدا" و "أحمد" وكذلك التشابه في الأصل الذي اشتق الاسم منهما لا يترك أدنى جزء من الشك، لأن المفهوم من الجملة هو (وسوف يأتي حمدا لكل الأمم) إنما هو "أحمد" أي محمد، ولا يوجد أدنى صلة في أصل الألفاظ ولا في تعليلها بين كلمة "حمد" وبين الأسماء الأخرى كمثل يسوع أو المسيح أو المخلص.

لو سلمنا جدلاً بالصيغة العبرية لكلمة "حمده" وأنها مجرد معنى اسمي لكلمات "أمنية أو مشتهى أو شهوة أو مدح" فإن هذا الجدل هو في صالح ما نطرحه من بحث هنا، وذلك لأن الصيغة العبرية تكون بحسب أصول الكلمات متساوية تماماً بالمعنى والتشبيه أو حتى في التطابق لكلمة "حمدا" وعلى أية حال فإن صلتها بـ "أحمد" أو "أحمدية" هي صلة قاطعة، وليس لها علاقة أبداً بـ "يسوع" أو "اليسوعية".،

إن هيكل "زورو بابل" كان يجب أن يكون أعظم مجداً من هيكل سليمان عليه السلام، ذلك لأن "ملاخي" تنبأ بأن الرسول العظيم لا بد أن يزوره فجأة، وهذا احصل فعلاً عندما زاره الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء.

إن "أحمد" وهي الصيغة الأخرى لاسم محمد ومن نفس المصدر والتعبير ومعناه "الأمجد"، وفي خلال رحلته الليلية صلى الله عليه وسلم زار تلك البقعة المقدسة كما ينص القرآن الكريم على ذلك، وهناك أدى الصلاة المباركة بحضور جميع الأنبياء عليهم السلام كما تدل أحاديثه الشريفة، وبهذا يتحقق المجد.

إن تسمية خاتم الأنبياء بـ "محمد" أو "أحمد" من أعظم المعجزات، لأنه أول اسم عرف بهذه الصفة في تاريخ البشرية.

الثالث عشر: بشارات زكريا عليه السلام:

البشارة الأولى: قال النبي زكريا عليه السلام في الإصحاح الثامن: (هكذا يقول رب الجنود: في تلك الأيام يجتمع عشرة رجال من كل لسانات الشعوب ويتمسكون بذيل رجل حميد، أعني أبو حيد، ويقولون: لنذهب معك، لأننا سمعنا أن الله معك) أورد المهتدي الشيخ زيادة هذه البشارة بلفظها العبري ثم ترجمها إلى اللغة العربية، وأطال الكلام حول هذه البشارة واشتقاقات اسم

"حميد وأحمد" وبين أنه ظل سنين طويلة وهو يقرأ هذه النبوة ويفهمها على وفق الترجمة اليهودية، حتى يسر الله له كتب أصول اللغة العبرية – وكانت شبه معدومة – فوقف من خلالها على حقيقة هذا اللفظ "يا أودي" وأنه إذا ترجم إلى اللغة العربية صار: "حميد".

الرابع عشر: بشارات ملاخي:

البشارة الأولى: قال ملاخي مخبراً عن الله أنه قال: (انظروا، إنني أبعث برسولي، وسوف يمهد السبيل أمامي، وسوف يأتي فجأة إلى هيكله السيد الذي تبحثون عنه، ورسول العهد الذي ترغبون. انظروا إنه قادم. هكذا يقول رب الجيوش أو الجموع) ويرى المهتدي عبد الأحد داود أن التحديد الدقيق لموضوع هذه النبوة أمر في غاية الأهمية، لأن الكنائس المسيحية اعتقدت منذئذ أن المقصود بها شخصان. ومما يدحض هذا الزعم انتهجته الكنائس ما يلي:

أن السيد أو الرسول الموعود كلف بتأسيس وإقامة دين قويم صالح، ومكلف بإزالة كافة العقبات التي تحول بين البشرية وربها، ومكلف أيضاً بأن يجعل الطريق سهلاً ممهداً مستنيراً ... وبالتأكيد فإن الرسول الرفيع الشأن المبعوث من الله لم يكن قادماً لإصلاح الطريق من أجل حفنة من اليهود، ولكن من أجل إقامة دين عام وثابت

للناس كافة، والديانة اليهودية ديانة خاصة لشعب خاص، هذا بالإضافة إلى ما تشتمل عليه من طقوس وتضحيات، وخلوها من العقائد الإيمانية الإيجابية، كل ذلك يفقد هذه الديانة جوهرها، ويجعلها غير ملائمة إطلاقا، وغير واقعية باحتياجات الشعوب المختلفة، أما الديانة النصرانية فإن طقوسها السبعة، واعتقادها بالخطيئة الأصلية، وتجسد الإله والتثليث — وهي أمور لم تعهد في الديانات السابقة — بالإضافة إلى افتقادها إلى كتابها الأصلي الذي أنزل على مؤسسها عليه السلام، كل ذلك يجعلها غير مؤهلة لأن تقدم خيراً للبشر. وإذا كان الرسول الخاتم مكلفاً بإلغاء هذين الدينين، وإقامة دين إبراهيم وإسماعيل ودين كافة الأنبياء على أسس وتعاليم تصلح للبشر كافة، فإن هذا الدين الذي أقامه ودعا إليه هو الصراط المستقيم، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى الله عز وجل، وأسهل الأديان لعبادته، وأسلم العقائد الباقية على طهارتها ونقائها الأبدي. إذا كان منوطاً بهذا الرسول المبشر به في هذا النص أن يرسخ هذا الدين، ويقيم الوحدانية، ويحول دون تدخل الوسطاء بين الله والناس.

هذا النص أكد على أن هذا الرسول المبشر به لا بد أن يصل بصورة مفاجئة إلى بيت المقدس، منطلقاً من الحرم الأول "مكة"

وهذا ما تحقق في ليلة الإسراء، وهذا يعني أن مهمة هذا الرسول تطهير هذه البقاع من الوثنية، ويلقن روادها الوحدانية، والإيمان بالله الواحد الأحد. وإذا تحقق هذا فهو بمثابة بناء طريق جديد يربط العبد بربه، وهذا الطريق الذي شرعه هو دين عالمي شامل يدعو إلى إلغاء الوسائط بين الله وعباده، فلا قديس ولا قسيس، ولا سر مقدس. وهذا لم يتحقق إلا على يد الرسول المنعوت بأنه "محمد صلى الله عليه وسلم".

البشارة الثانية: قول ملاخي: (هاأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء، وقلب الأبناء على آبائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن). قال المهتدي النجار: (والمعنى أن الله يرسل قرب الساعة النبي أحمد صلى الله عليه وسلم "فيرد قلب الآباء على الأبناء" يرد بني إسماعيل – أعمام بني إسرائيل – إلى حقيقة وحي الأنبياء والمرسلين من أبناء أخيهم إسحاق "وقلب الأبناء على آبائهم" ويرد اليهود والنصارى على دين آبائهم الأنبياء نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى، قال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه).

تأمل ما في هذه البشارة من الوعد بمجيئه صلى الله عليه وسلم قبل يوم القيامة مع قوله صلى الله عليه وسلم : (بعثت أنا والساعة هكذا. ويشير بأصبعيه فيمد بهما).

هذه أسفار العهد القديم شاهدة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، شهادة لا تقبل التضليل ، مصرحة باسمه ولغته وصفة أمته صراحة لا تحتمل التأويل ، فمن كان طالباً للحق اتبعه إذا قام عليه الدليل ، فكيف إذا تظافرت عليه الأدلة والبراهين ، والحق هنا شهادة العهد التقديم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. فمن أراد أن يدفع اليقين بأوهن الشكوك ، وأفسد التأويل ، ويدعي — مماحكة ومجادلة — أن هذه النبوات والشهادات وردت في حق عيسى عليه السلام — فيقال له ليس بعد التصريح بذكر اسمه وصفته وخبره وبلده وأمته — مجال للتأويل والاحتمال. كيف وقد شهد المسيح عليه السلام بنبوته وأخبر تلامذته باقتراب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ؟؟ وهذه الشهادة ما يماثلها من شهادات العهد الجديد هي ما سيكون الحديث عنه في المطلب التالي.

الفصل السادس

موسى عليه السلام يبشر بنبي من بعده

تعتبر بشارة نبي الله موسى عليه السلام عن قدوم نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم من أهم العلامات البارزة في هذا المضمار . وتبدأ هذه البشارة عندما ينزل موسى من جبل الطور بعد ما كلمه ربه فيقول مخاطباً بني إسرائيل : " قال لي الرب : قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه ، وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبي وإن قلت في قلبك : كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصِر ، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان تكلم به النبي ، فلا تخف منه " (التثنية ١٨ : ١٧ - ٢٢). والنص كما هو واضح يتحدث عن نبي عظيم يأتي بعد موسى عليه السلام ، ويذكر صفات هذا النبي ، والتي نستطيع من خلالها معرفة من يكون .

ويـزعم النـصارى أن هـذا الـنبي قـد جـاء، وهـو عيـسى عليـه السلام، فقد قال بطرس في سياق حديثه عن المسيح : " فإن موسـى قال للآبــاء: إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، لـه تـسمعـون في كـل مـا يكلمكـم بـه، ويكـون أن كـل نفس لا تـسمع لذلــك الـنبي تبــاد مـــن الـشعـب، وجميـع الأنبيـاء أيـضاً مـن صموئيل فما بعده، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام "(أعمال الرسل ٣ : ٢٢ /٢٦) فبطرس يرى نبوءة موسى متحققة في شخص المسيح .

لكن النص دال على نبينا صلى الله عليه وسلم، إذ لا دليل عنـد النصارى على تخصيصه بالمسيح، بينما يظهر في النص عند تحليله أدلة كثر تشهد بأن المقصود به هو نبينا صلى الله عليه وسلم. إذ يذكر النص التوراتي أوصاف هذا المبعوث المبشر به .

أولاً : أنـه نـبي " أقيم لهـم نبيـاً "، والنـصارى يـدعون للمـسيح الإلهية، بل يـدعي الأرثـوذكس أنـه الله نفسه، فكيـف يقـول لهـم: أقيم نبياً، ولا يقول: أقيم نفسي .

ثانياً : أنه من غير بني إسرائيل، بل هو من بين إخوتهم أي أبنـاء عمومتهم "من وسط إخوتهم"، وعمومة بني إسرائيل هم بنو عيسو بـن إسـحاق، وبنـو إسماعيـل بـن إبـراهيم ومـن المعهـود في التـوراة

إطلاق لفظ " الأخ " على ابن العم ، ومن ذلك قول موسى لبني إسرائيل : " أنتم مارون بتخم إخوتكم بنو عيسو " (التثنية ٢ : ٤) وبنو عيسو بن إسحاق – كما سلف - هم أبناء عمومة لبني إسرائيل ، وجاء نحوه في وصف أدوم ، وهو من ذرية عيسو "وأرسل موسى رسلاً من قادش إلى ملك أدوم ، هكذا يقول أخوك إسرائيل : قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا (العدد٢٠ : ١٤)، فسماه أخاً ، وأراد أنه من أبناء عمومة إسرائيل وعليه فهذا النبي يحتمل أن يكون من العرب تحقيقاً للبركة الموعودة في نسل إسماعيل ، وقد يكون من بني عيسو بكر إسحاق لكن أحداً من بني عيسو لم يدع أنه النبي المنتظر .

ثالثاً : هذا النبي من خصائصه أنه مثل لموسى الذي لم يقم في بني إسرائيل نبي مثله- ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجها لوجه (التثنية٣٤ : ١٠) وفي التوراة السامرية ما يمنع صراحة قيام مثل هذا النبي فقد جاء فيها : "ولا يقوم أيضاً نبي في بني إسرائيل كموسى الذي ناجاه الله" (التثنية ٣٤ : ١٠) .

وهذه الخصلة ، أي المثلية لموسى متحققة في نبينا صلى الله عليه وسلم ، ممتنعة في المسيح ، حيث نرى الكثير من أمثلة التشابه بين

موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، والتي لا نجدها في المسيح، من ذلك ميلادهما الطبيعي، وزواجهما، وكونهما صاحبا شريعة، وكل منهما أمر بالجهاد ضد أعداء الله ، وكلاهما قاد أمته، وملك عليها، وكلاهما بشر، بينما تزعم النصارى بأن المسيح إله، وهذا ينقض كل مثل لو كان .

وقد وصف المسيحُ النبي القادم بمثلية موسى، صارفاً إياه عن نفسه فقال: " لا تظنوا إني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم، و هو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني، فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي" (يوحنا ٥ : ٤٥ - ٤٧)، فسماه موسى المرجو أو المنتظر، لمشابهته له وعن هذا الذي يشكو بني إسرائيل يقول المسيح: أجاب يسوع: " أنا ليس بي شيطان، لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني، أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين " (يوحنا ٨ : ٤٩ – ٥٠) .

رابعاً : من صفات هذا النبي أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، والوحي الذي يأتيه وحي شفاهي، يغاير ما جاء الأنبياء قبله من

صحف مكتوبة " وأجعل كلامي في فمه "، وقد كان المسيح عليه السلام قارئاً - انظر لوقا ٤/١٦- ١٨ .

خامساً : أنه يتمكن من بلاغ كامل دينه ، فهو " يكلمهم بكل ما أوصيه به ". وهو وصف منطبق على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كان من أواخر ما نزل من القرآن عليه صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً " (المائدة : ٣)، وقد وصفه المسيح في نبوءة البارقليط (١) ، فقال : " وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي ، فهو يعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" (يوحنا ١٤ : ٢٦) ولا يمكن أن يكون المسيح عليه السلام هو ذلك النبي الذي يبلغ كل ما يوصيه به ربه فقد رفع المسيح عليه السلام ولديه الكثير مما يود أن يبلغه إلى تلاميذه لكنه لم يتمكن من بلاغه لكنه بشرهم بالقادم الذي سيخبرهم بكل الحق لأنه النبي الذي تكمل رسالته ولا يحول دون بلاغها قتله أو إيذاء قومه يقول عليه السلام : "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به" (يوحنا ١٦ : ١٢ – ١٣) .

سادساً : أن الذي لا يسمع لكلام هذا النبي فإن الله يعاقبه ، " ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي ، أنا أطالبه " ، وقد فسرها بطرس ، فقال : " ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب " ، فهو نبي واجب السمع والطاعة على كل أحد. ومن لم يسمع له تعرض لعقوبة الله ، وهو ما حاق بجميع أعداء النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث انتقم الله من كل من كذبه من مشركي العرب والعجم ، وقد قال المسيح عنه في نبوءة الكرامين "ومن سقط على هذا الحجر يترضض ، ومن سقط هو عليه يسحقه " (متى ٢١ : ٤٤) ، فهو الحجر الصلب الذي يفني أعداءه العصاة ، والذي بشر بمقدمه النبي دانيال : "وفي أيام هؤلاء يقيم إله السماوات مملكة لن تنقرض أبداً ، ومَلِكها لا يُترك لشعب آخر ، وتسحق وتفنى كل هذه الممالك ، وهي تثبت إلى الأبد ، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين ، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب" (دانيال ٢ : ٤٤ - ٤٥) .

وأما المسيح عليه السلام فلم يكن له هذه القوة وتلك المنعة ، ولم يتوعد حتى قاتليه ، فكيف بأولئك الذين لم يسمعوا كلامه ، فقد قال لوقا في سياق قصة الصلب : " فقال يسوع : يا أبتاه اغفر لهم ، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لوقا ٢٣ : ٣٤) ، فأين هو

من خبر ذاك " الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه " .

سابعاً : من صفات هذا النبي أنه لا يقتل ، بل يعصم الله دمه عن أن يتسلط عليه السفهاء بالقتل ، فالنبي الكذاب عاقبته "يموت ذلك النبي" ، أي يقتل ، فالقتل نوع منه ، ولأن كل أحد يموت ، وهنا يزعم النصارى بأن المسيح قتل ، فلا يمكن أن يكون هو النبي الموعود وبالرجوع إلى التراجم القديمة للنص نرى أن ثمة تحريفاً وقع في الترجمة ، فقد جاء في طبعة ١٨٤٤م " فليقتل ذلك النبي " ، ولا يخفى سبب هذا التحريف .

ثامناً : يتحدث عن الغيوب ويصدق كلامه ، وهذا النوع من المعجزات يكثر في القرآن والسنة – مما يطول المقام بذكره- ، ويكفي هنا أن نورد نبوءة واحدة مما تنبأ به صلى الله عليه وسلم ، فكان كما أخبر ففي عام ٦١٧ م كادت دولة الفرس أن تزيل الإمبرطورية الرومانية من على خارطة الدنيا ، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل ، ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان ، ففي سنوات معدودة تمكن جيش الفرس من السيطرة على بلاد الشام وبعض مصر ، واحتلت جيوشهم أنطاكيا شمالاً ، مما يؤذن بنهاية وشيكة للإمبرطورية الرومانية ، وأراد هرقل

أن يهـرب مـن القـسطنطينية ، لـولا أن كـبير أسـاقفة الـروم أقنعـه بالصمود وطلب الصلح الذليل من الفرس . ووسـط هـذه الأحـداث ، وخلافاً لكل التوقعات أعلن النبي محمد صلى الله عليه وسـلم أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين ، أي فيما لا يزيد عن تـسع سـنين ، فقـد نـزل عليـه قولـه تعـالى : "غلبـت الـروم في أدنـى الأرض وهم من بعـد غلبهم سيغلبون في بـضع سنين لله الأمـر مـن قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله " (الـروم : ٢- ٥). وكان كما تنبأ ، ففي أعوام ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥م استطاع هرقل أن يشن ثلاث حملات ناجحة أخرجت الفرس من بـلاد الرومـان ، وفي عام ٦٢٧م واصل الرومان زحفهـم حتـى وصـلوا إلى ضفـاف دجلـة داخل حدود الدولـة الفارسية ، واضـطر الفـرس لطلـب الـصلح مـع الرومان ، وأعادوا لهم الصليب المقدس الذي كان قد وقع بأيديهم ، فمـن ذا الـذي أخـبر محمـداً صـلى الله عليـه وسـلم بهـذه النبـوءة العظيمة؟ ليس هذا سوى الله تعالى وليس محمد إلا النبي الـذي تنبـأ عنه موسى عليه السلام.

يقول المؤرخ إدوار جِبن : "في ذلك الوقت ، حين تنبأ القرآن بهـذه النبـوءة ، لم تكـن أيـة نبـوءة أبعـد منهـا وقوعـاً ، لأن الـسنين الاثـنتي عـشر الأولى مـن حكومـة هرقـل كانـت تـؤذن بانتهـاء الإمبرطوريـة

الرومانية . روى الترمذي في سننه (٣١٩٣) عن ابن عباس في قول الله تعالى : "غُلِبَتِ الرُّومُ {٢} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {٣} فِي بِضْعِ سِنِينَ " (الروم : ٢ - ٤) قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم ، لأنهم وإياهم أهل الأوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، فذكروه لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما إنهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجلاً خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألا جعلته إلى دون العشر قال أبو سعيد : والبضع ما دون العشر قال : ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله تعالى : " غُلِبَتِ الرُّومُ {٢} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {٣} فِي بِضْعِ سِنِينَ " (الروم : ٢ — ٤).

وهكذا ظهر لكل ناظر منصف أن النبي الذي تنبأ عنه موسى لم تتحقق أوصافه في المسيح العظيم عليه الصلاة والسلام ، وتحققت في أخيه محمد صلى الله عليهما وسلم تسليماً كثيراً ومما يؤكد ذلك أنه كما لم تتوافر هذه الصفات مجتمعة في غيره ، فإن اليهود لا يقولون

بمجيء هذا المسيح فيما سبق، بل مازالوا ينتظرونه إذ لما بعث يحيى عليه السلام ظنه اليهود النبي الموعود وأقبلوا عليه يسألونه " النبي أنت؟ فأجابهم: لا " (يوحنا ١ : ٢١) أي لست النبي الذي تنتظره اليهود ثم أراد تلاميذ المسيح أن تتحقق النبوءة في المسيح، فذات مرة لما رأوا معجزاته " قالوا: إن هذا بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده " (يوحنا ٦ : ١٤ - ١٥)، فقد أراد تلاميذ المسيح تنصيبه ملكاً ليحققوا النبوءة الموجودة لديهم عن النبي المنتظر الذي يملك ويحقق النصر لشعبه، فلما علم المسيح عليه السلام أنه ليس النبي الموعود هرب من بين أيديهم.

ويرى النصارى أن ثمة إشكالاً في النص التوراتي (التثنية ١٨/١٧- ٢٢) يمنع قول المسلمين، فقد جاء في مقدمة سياق النص أن الله لما كلم موسى قال: " يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي.... قد أحسنوا في ما تكلموا: أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك " (التثنية ١٨ : ١٥ - ١٨) فقد وصفت النبي بأنه "من وسطك" أي من بني إسرائيل، ولذا ينبغي حمل المقطع الثاني من النص على ما جاء في المقطع الأول، فالنبي " من وسطك " أو كما جاء في بعض التراجم "من بينك " أي أنه إسرائيلي

لكن التحقيق يرد هذه الزيادة التي يراها المحققون تحريفاً، بدليل أن موسى لم يذكرها، وهو يعيد خبر النبي على مسامع بني إسرائيل، فقال: " قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك " (التثنية ١٨ : ١٧- ١٨)، ولو كانت من كلام الله لما صح أن يهملها كما أن هذه الزيادة لم ترد في اقتباس بطرس واستيفانوس للنص كما جاء في أعمال الرسل قال بطرس: "فإن موسى قال للآباء: إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم به" (أعمال ٣ : ٢٢)، وقال استيفانوس: "هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون" (أعمال ٧ : ٣٧)، فلم يذكرا تلك الزيادة، ولو كانت أصلية لذكرت في سائر المواضع.

نبوءة موسى عن البركة الموعودة في أرض فاران :

وقبيل وفاة موسى عليه السلام ساق خبراً مباركاً لقومه بني إسرائيل، فقد جاء في سفر التثنية: "هذه البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة، فأحب الشعب، جميع قديسيه في

يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك" (التثنية ٣٣ : ١- ٣) وأكد هذه النبوءة النبي حبقوق ، حيث يقول : "الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوبأ ، وعند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض ، نظر فرجف الأمم " (حبقوق ٣ : ٣ – ٦) وقبل أن نمضى في تحليل النص نتوقف مع الاختلاف الكبير الذي تعرض له هذا النص في الترجمات المختلفة .

فقد جاء في الترجمة السبعينية : "واستعلن من جبل فاران ، ومعه ربوة من أطهار الملائكة عن يمينه ، فوهب لهم وأحبهم ، ورحم شعبهم ، وباركهم وبارك على أظهاره ، وهم يدركون آثار رجليك ، ويقبلون من كلماتك. أسلم لنا موسى مثله ، وأعطاهم ميراثاً لجماعة يعقوب" .

وفي ترجمة الآباء اليسوعيين : "وتجلى من جبل فاران ، وأتى من ربى القدس ، وعن يمينه قبس شريعة لهم". وفي ترجمة ١٦٢٢م " شرف من جبل فاران ، وجاء مع ربوات القدس ، من يمينه الشريعة " ، ومعنى ربوات القدس أي ألوف القديسين الأطهار ، كما في

ترجمة ١٨٤١م " واستعلن من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه سنة من نار "

واستخدام ربوات بمعنى ألوف أو الجماعات الكثيرة معهود في الكتاب المقدس "ألوف ألوف تخدمه، وربوات ربوات وقوف قدامه" (دانيال ٧ : ١٠)، ومثله قوله: "كان يقول: ارجع يا رب إلى ربوات ألوف إسرائيل" (العدد ١٠ : ٣٦)، فالربوات القادمين من فاران هم الجماعات الكثيرة من القديسين، الآتين مع قدوسهم الذي تلألأ في فاران .

والنص التوراتي يتحدث عن ثلاثة أماكن تقع منها البركة، أولها: جبل سيناء حيث كلم الله موسى. وثانيها: ساعير، وهو جبل يقع في أرض يهوذا (انظر يشوع ١٥ : ١٠)، وثالثها: هو جبل فاران وتنبئ المواضع التي ورد فيها ذكر " فاران " في الكتاب المقدس أنها تقع في صحراء فلسطين في جنوبها لكن تذكر التوراة أيضاً أن إسماعيل قد نشأ في برية فاران (التكوين ٢١ : ٢١)، ومن المعلوم تاريخياً أنه نشأ في مكة المكرمة في الحجاز .

ويرى اليهود والنصارى في هذا النص أنه يتحدث عن أمر قد مضى يخص بني إسرائيل، وأنه يتحدث عن إضاءة مجد الله وامتداده لمسافات بعيدة شملت فاران وسعير وسيناء .

ويرى المسلمون أن النص نبوءة عن ظهور عيسى عليه السلام في سعير في فلسطين، ثم محمد صلى الله عليه وسلم في جبل فاران، حيث يأتي ومعه الآلاف من الأطهار مؤيدين بالشريعة من الله عز وجل وذلك متحقق في رسول الله لأمور ، نذكر منها :-

أولاً : أن جبل فاران هو جبل مكة، حيث سكن إسماعيل، تقول التوراة عن إسماعيل:

" كان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر " (التكوين ٢١ : ٢٠- ٢١) وقد انتشر أبناؤه في هذه المنطقة، فتقول التوراة: " هؤلاء هم بنو إسماعيل..... وسكنوا من حويلة إلى شور "

(التكوين ٢٥ : ١٦ – ١٨) و حويلة كما جاء في قاموس الكتاب المقدس منطقة في أرض اليمن، بينما شور في جنوب فلسطين. وعليه فإن إسماعيل وأبناؤه سكنوا هذه البلاد الممتدة جنوب الحجاز وشماله، وهو يشمل أرض فاران التي سكنها إسماعيل.

ثانياً : أن وجود منطقة اسمها فاران في جنوب فلسطين لا يمنع من وجود فاران أخرى هي تلك التي سكنها إسماعيل، وقامت

الأدلـة التاريخيـة علـى أنهـا الحجـاز، حيـث بنـى إسماعيـل وأبـوه الكعبة، وحيث تفجر زمزم تحت قدميه، وهو ما اعترف به عدد من المؤرخين منهم المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسبيوس فقالا بأن فاران هي مكة

ثالثاً : لا يقبل قول القائل بأن النص يحكي عن أمر ماضٍ، إذ التعبير عن الأمور المستقبلة بصيغة الماضي معهود في لغة الكتاب المقدس يقول اسبينوزا : " أقدم الكتاب استعملوا الزمن المستقبل للدلالة على الحاضر، وعلى الماضي بلا تمييز كما استعملوا الماضي للدلالة على المستقبل... فنتج عن ذلك كثير من المتشابهات .

رابعاُ : ونقول: لم خص جبل فاران بالذكر دون سائر الجبال لو كان الأمر مجرد إشارة إلى انتشار مجد الله .

خامساً : ومما يؤكد أن الأمر متعلق بنبوءة الحديث عن آلاف القديسين، والذين تسميهم بعض التراجم " أطهار الملائكة " أي أطهار الأتباع، إذ يطلق هذا اللفظ ويراد به: الأتباع، كما جاء في سفر الرؤيا أن: " ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنينُ وملائكتُه ...." (الرؤيا ١٢ : ٧) فمتى شهدت فاران مثل هذه الألوف من الأطهار؟ فما ذلك إلا محمد وأصحابه .

سادساُ : وما جاء في سفر حبقوق يؤيد قول المسلمين حيث يقول : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوبأ ، و عند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض ، نظر فرجف الأمم ، .... " حبقوق (٣ : ٣ – ٦) فالنص شاهد على أنه ثمة نبوة قاهرة تلمع كالنور ، ويملأ الآفاق دوي أذان هذا النبي بالتسبيح

وبعد عودة بني إسرائيل من السبي وتخفيفاً لأحزانهم ساق لهم النبي حجي بشارة من الله فيها : "لا تخافوا ، لأنه هكذا قال رب الجنود ، هي مرة بعد قليل فأزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة ، وأنزل كل الأمم ، ويأتي مشتهى كل الأمم ، فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود.... وفي هذا المكان أعطي السلام يقول رب الجنود. حجي ٦/٢ - ٩ .

وهذه النبوءة لا ريب تتحدث عن القادم الذي وعد به إبراهيم ، وبشر به يعقوب وموسى ثم داود عليهم الصلاة والسلام.

وقبل أن نلج في تحديد شخصية هذا المشتهى من كل الأمم نتوقف مع القس السابق عبد الأحد داود فهو يعود للترجمة العبرانية فيجد النص : " لسوف أزلزل كل الأرض ، وسوف يأتي "محماد"

لكل الأمم... وفي هذا المكان أعطي السلام " فقد جاء في العبرية لفظة " محماد " أو حمدوت كما في قراءة أخرى، ولفظة " مِحِمْادْ " في العبرانية تستعمل عادة لتعني : " الأمنية الكبيرة " أو " المشتهى "، والنص حسب الترجمة العبرانية المتداولة : " فيافو حمدوت كولو هاجيم ".

لكن لو أبقينا الاسم على حاله دون ترجمة، كما ينبغي أن يكون في الأسماء ، فإنا واجدون لفظة " محماد " هي الصيغة العبرية لاسم أحمد، والذي أضاعها المترجمون عندما ترجموا الأسماء أيضاً.

وجاء في تمام النبوءة " في هذا المكان أعطي السلام "، وقد استخدمت الترجمة العبرية لفظة " شالوم " والتي من الممكن أن تعني الإسلام، فالسلام والإسلام مشتقان من لفظة واحدة. ٤

وقوله : " في هذا المكان أعطي السلام "، قد تتحدث عن عقد الأمان الذي عم تلك الأرض والذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهل القدس عندما فتحها، فتكون النبوءة عن إعطاء السلام ولم تنسبه للمشتهى، ذلك أن الأمر تم بعد وفاته في أتباعه وأصحابه الكرام.

ولا ريب أن البنوءة لا تتحدث عن المسيح، إذ لا تقارب بين ألفاظ النبوءة واسمه، أو بين معانيه وما عهد عنه عليه السلام، إذ

لم يستتب الأمن في القدس حال بعثته، بل بشر اليهود بخراب هيكلهم بعد حين، كما كان رسولاً إلى بني إسرائيل فحسب، وليس لكل الأمم.

وهذا الاستعمال لكلمة " السلام " بمعنى " الإسلام " يراه عبد الأحد داود لازماً في موضع آخر من الكتاب المقدس، فقد جاء في إنجيل لوقا أن الملائكة ترنموا عند ميلاد المسيح قائلين: " المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة " لوقا ٢/١٤ .

ويتساءل القس السابق عبد الأحد داود أي سلام حلَّ على الأرض بعد ميلاد المسيح، فقد تتابع القتل والحروب ما تزال تطحن، وإلى قيام الساعة، ولذلك فإن الترجمة الصحيحة لكلمة " إيرينا " اليونانية في العبرانية: " شالوم "، وهي في العربية " الإسلام " كما " السلام ".

وإن أصر النصارى على تفسير كلمة " إيرينا " بالسلام، فقد جعلوا من عيسى مناقضاً لنفسه، إذ قال: " جئت لألقي ناراً على الأرض... أتظنون أني جئت لأعطي سلاماً على الأرض. كلا أقول لكم، بل انقساماً.... " لوقا ١٢/٤٩ - ٥١ ، وفي متى: " لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً " متى ١٠/٣٤ .

وتبعاً لهذا يرى عبد الأحد داود أن صانعي السلام هم المسلمون، وذلك في قول المسيح : " طوبى لصانعي السلام، لأنهم يدعون أبناء الله " متى ٩/٥ ، فيرى أن الترجمة الدقيقة هي " طوبى للمسلمين " وليس صانعي السلام الخيالي، الذي لم ولن يوجد على الأرض.

كما لا يستطيع أحد ينتمي إلى فرق النصارى المختلفة والمتباغضة طوال تاريخ النصرانية، لا يستطيع أن يقول بأن السلام قد تحقق في نفوس المؤمنين، إذ الأحقاد المتطاولة تكذب ذلك كله.

وجاء في تمام الأنشودة المزعومة للملائكة : " وبالناس المسرة "، واستخدم النص اليوناني كلمة " يودكيا " وهي كلمة مشتقة من الفعل اليوناني " دوكيو " ومعناها كما في القاموس الإغريقي : " لطيف، محسن، دمث... " ومن معانيها أيضاً السرور - المحبة - الرضا - الرغبة، الشهرة...

فكل هذه الإطلاقات تصح في ترجمة كلمة " يودوكيا " التي يصح أيضاً أن تترجم في العبرانية إلى " محماد، ما حامود " المشتقة من الفعل " حمد " ومعناه : المرغوب فيه جداً، أو البهيج، أو الرائع أو المحبوب أو اللطيف، وهذا كله يتفق مع المعاني التي تفيدها كلمة محمد وأحمد، واللتان تقاربان في الاشتقاق كلمتي " حمدا و محماد

" العبرانيتين، ومثل هذا التقارب يدل على أن لهما أساس واحد مشترك كما هو الحال في كثير من كلمات اللغات السامية.

وينبه عبد الأحد داود إلى وجود هذا النص في إنجيل لوقا اليوناني، في الوقت الذي كانت فيه العبارات سريانية حين مقالها، ولا يمكن - حتى مع بذل الجهد والأمانة في الترجمة - أن تترجم كلمة ما من لغة إلى أخرى، وتفيد نفس المعاني الأصلية للكلمة. ومع ضياع الأصول لا يمكن التحقق من دقة هذه الترجمة.

والترجمة الصحيحة للترنيمة كما يرى عبد الأحد داود هي: " الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام

ويتحدث داود عن النبي القادم فيقول: " قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك، يرسل الرب قضيب عزك من صهيون، تسلط في وسط أعدائك شعبك، فتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة.. أقسم الرب ولن يندم: أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. الرب عن يمينك، يحطم في يوم رجزه ملوكاً يدين بين الأمم، ملأ جثثاً، أرضاً واسعة سحق رؤوسها..." المزمور ١١٠/١- ٦.

ويرى النصارى في النص نبوءة بالمسيح القادم من اليهود الذي يرون واليهود أنه سيكون من ذرية داود.

وقد أبطل المسيح لليهود قولهم، وأفهمهم أن القادم لن يكون من ذرية داود، ففي متى " كان الفريسيون مجتمعين، سألهم يسوع: ماذا تظنون في المسيح؟ ابن من هو؟ قالو له: ابن داود. قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أضع موطئاً لقدميك، فإن كان داود يدعوه رباً فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيب بكلمة " متى ٢٢/٤١ - ٤٦ وفي مرقس " فداود نفسه يدعوه رباً. فمن أين هو ابنه " مرقس ١٢/ ٣٧ و انظر لوقا ٢٠/٤١ – ٤٤ .

وتسمية عيسى عليه السلام للنبي بالمسيح سبق التنبيه عليها.

فلقب "المسيح المنتظر" يتعلق بمسيح يملك ويسحق أعداءه، وهو ما رأينا إنكار المسيح عليه السلام له في مواطن عديدة، منها أنه قال لبيلاطس: " مملكتي ليست في هذا العالم " يوحنا ١٨/ ٣٦ أي أنها مملكة روحية، وهي غير المملكة التي يبشر بها داود في مزاميره، حيث قال: "أضع أعداءك موطئاً لقدميك، يرسل الرب قضيب عزك من صهيون، تسلط في وسط أعدائك شعبَك... يحطم في يوم رجزه ملوكاً يدين بين الأمم، ملأ جثثاً، أرضاً واسعة سحق رؤوسها...." ، وهو الذي قال عنه يعقوب: " له خضوع شعوب " التكوين ٤٩/ ١٠ .

وينقـل القـس الـدكتور فهـيم عزيـز عميـد كليـة اللاهـوت للبروتستانت في مـصر عـن علمـاء الغـرب إنكـارهم " أن يـسوع كـان يتصرف ويـتكلم كمـسيح لليهـود أو المسيا الـذي كـان ينتظـره العهـد القـديم " .، وقـد تنبأ وبـشر سـليمان أيـضاً في المـزامير بـالنبي الملـك، صلى الله عليه وسلم، فقال: " ويملـك مـن البحـر إلى البحـر، ومـن النهر إلى أقاصي الأرض، أمامه تجثو أهل البرية، وأعداؤه يلحسون التراب، ملوك ترشيش والجزائـر يرسـلون تقدمـة، ملـوك شـبا وسـبإ يقدمون هدية، ويسجد لـه كـل الملـوك، كـل الأمـم تتعبـد لـه، لأنـه ينجي الفقير المستغيث والمسكين إذ لا معين له، يشفق عـلى المـسكين والبائس ويخلص أنفس الفقراء، من الظلم والخطف يفـدي أنفـسهم ويكـرم دمهـم في عينيـه، ويعـيش ويعطيـه مـن ذهـب شـبا، ويـصلّي لأجلـه دائمـاً، اليـوم كلـه يباركـه، تكـون حفنـة بـر في الأرض في رؤوس الجبال، تتمايل مثل لبنان ثمرتها ويزهـرون مـن المدينـة مثـل عشب الأرض، يكون اسمه إلى الدهر، قدام الـشمس يمتـد اسمـه، ويتبـاركون بـه، كـل أمـم الأرض يطوّبونـه، مبـارك الـرب الله إلـه إسرائيـــل الـصانـع العجائـب وحــده، ومبــارك اسـم مجده إلى الدهــر ولتمتلـئ الأرض كلهــا مـــن مجـــده، آمـيـــن ثـم آمـين " المزمور ٧٢/٨- ١٩ ، فمن هو الذي سجدت وأذعنت وذلـت لـه

الملوك، ومجده الله في كل الدهور؟ لا ريب أنه محمد صلى الله عليه وسلم، الذي دانت لسلطانه أعظم ممالك عصره ، الروم والفرس.

إنجيل برنابا.. الشاهد والشهيد

الحمد لله الذي منَّ علينا بأعظم نعمة ألا وهي نعمة الإسلام ...

فكم يشعر المرء بالفخر والاعتزاز عندما ينتسب لهذا الدين العظيم ويكون تابعاً لأشرف الخلق أجمعين " محمد صلى الله عليه وسلم " وعندها تكون من خير أمة أخرجت للناس، تلك الأمة وهذا النبي الذي بشّر به الأنبياء أقوامهم، وكانوا يأخذون عليهم العهود ويتناقلون فيما بينهم لئن خرج الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه لتنصرنّه، فلا غرابة إذن من أن نجد بين نصوص الكتاب المقدس ما يشير إلى ذلك مهما حاولت يد الغدر والخيانة أن تحرف النصوص أو أن تنال من الحقيقة الدامغة :

فالذّهب وإن خالطته الشوائب لكنها تعجز عن إذهاب بريقه ولمعانه!!!

فكما تعلمون أحبتي في الله أنّ الباطل مهما علا واستعلى فان مصيره إلى الزوال

وأنّ الحق لا بد وأن يظهره الله حتى يكون حجّة على القاصي والداني، فمن هنا كانت البداية ...

من هو برنابا

هـو أحـد التلاميـذ (الحـواريين) الملازمـين لـسيدنا عيـسى عليـه السلام ، وصـاحب الإنجيـل الـشاهد عـلى الحـق والـشهيد مـن أجـل كلمة الحق فكان جزاء هذا الإنجيل الطرد من الكتاب المقدس وذلـك بقرار البابا جلاسيوس عام ٤٩٢م ؛ لأنـه يعـارض الكتـاب المقـدس فيما يدّعونه بألوهية المسيح ، إلى أن جاء فيما بعـد الراهـب اللاتـيني "فرامرينو" الذي حصل عليه من مكتبـة البابويـة وأعلـن إسـلامه بعـد قراءته له كما ذكـر ذلـك الـدكتور الـنصراني خليـل سـعادة في مقدمـة ترجمته لإنجيل برنابا...

وأمّا برنابا فكما ذكرته كتب العهـد الجديـد ، يتـضح مـن خلالهـا أنّـه رجـل صـادق ومـن أكثـر التلاميـذ (الحـواريين) ورعـاً وحفظـا للوصايا والتعاليم إذ ورد في سفر أعمـال الرسـل الإصـحاح الحـادي عشر الفقرة رقم (٢٢- ٢٤) :

((فسمع الخبر عنهم في آذان الكنيسة الـتي في أورشـليم فأرسـلوا برنابا لكي يجتاز إلى إنطاكية الذي لمّا أتى ورأى نعمة الله فرح ووعـظ الجميع أن يثبتوا في الرب بعزم القلب لأنه كـان رجـلاً صـالحاً وممتلئـاً من الروح القدس والإيمان ، فأنضمّ إلى الربّ جمع غفير)).

وأسألكم بالله لو لم تكن لدعوته التي كانت قائمة على التوحيد وعلى دين رسول الله إبراهيم والنبيين من بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم - دين الفطرة والعقل والعاطفة- أينضم إلى الربّ جمع غفير؟!

والله لو كانت عقيدة برنابا كعقيدة النصارى اليوم التي ليس للعقل والعاطفة فيها ناقة ولا جمل، لما أنضم إلى الرب هذا الجمع، بل زد على هذا لأحتاج إلى مئات السنين حتى يشرح لهم" الثالوث"- على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وغيره من الأمور التي لا يقبلها عاقل... ولكنه خاطب فطرتهم ودعاهم إلى الدين الحق الذي نزل على موسى وعيسى ومحمّد وعلى الأنبياء صلوات ربّي وسلامه عليهم أجمعين...

إنجيل برنابا :

وفيما يلي نورد بعض ما تضمنته صفحات هذا الكتاب المضطهد :

ورد في الفصل السادس والتسعون الفقرات من ١- ١٥ صفحة ١٤٦ :

(١) ولما انتهت الصلاة قال الكاهن بصوت عال : " قف يا يسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لامتنا "

(٢) أجاب يسوع : " أنا يسوع بن مريم من نسل داود ، بشر مائت ويخاف الله وأطلب أن لا يعطى الإكرام والمجد إلا لله"

(٣) أجاب الكاهن : " انه مكتوب في كتاب موسى أن الهنا سيرسل لنا مسيّا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله وسيأتي للعالم برحمة الله (٤) لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق هل أنت مسيّا الله [تعني رسول الله] الذي ننتظره ؟ "

(٥) أجاب يسوع : " حقاً أن الله وعد هكذا ولكني لست هو لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي "

(٦) أجاب الكاهن إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي وقدوس الله

(٧) لذلك أرجوك بإسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حباً في الله بأية كيفيه سيأتي مسيّا "

(٨) أجاب يسوع " لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي أنّي لست مسيّا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً : بنسلك أبارك كل قبائل الأرض

(٩) ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله (١٠) فيتنجّس بسبب هذا

كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً (١١) حينئذٍ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله (١٢) الذي سيأتي من الجنوب بقوّة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام (١٣) وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر (١٤) وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به (١٥) وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً)).

وأما فيما يتعلّق بالبشارة فقد ورد اسم محمد صلى الله عليه وسلّم في هذا الإنجيل صريحاً اسماً وصفةً :

فقد ورد أيضاً في الفصل السابع والتسعون الفقرات من ٤- ١٠ :

((فقال حينئذٍ يسوع : " إن كلامكم لا يعزيني لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فيّ وسيمتدّ دينه ويعمّ العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم وأن ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحاً " أجاب الكاهن : " أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله ؟"

فأجاب يسوع : "لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله ، ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة وهو ما يحزنني لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى إنجيلي"

وأمّا عن ذكر اسم محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد ورد في الفقرات من ١٣- ١٨ :

((فقال حينئذٍ الكاهن : " ماذا يسمّى مسيّا وما هي العلامة التي تعلن مجيئه؟"

أجاب يسوع " إن اسم مسيّا عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله : " اصبر يا محمد لأنّي لأجلك أريد أن اخلق الجنّه ، العالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلمتك صادقة حتّى أن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً إن اسمه المبارك محمّد"

حينئذٍ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : " يا الله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم ! ")).

وأخيراً لا نملك إلا أن نقرأ قول الله تعالى :

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ "

صدق الله العظيم

المراجع

١ – توماس وارنولد – الدعوة إلى الإسلام.

٢ – عزت بيجوفيتش – الإسلام بين الشرق والغرب.

٣ – د. محمد بن عبدالله السحيم – أعظم إنسان في العهد القديم.

٤ – عبدالدائم الكحيل – خطاب علمي ومادي لمن لا يؤمن بمحمد رسول الله.

٥ – مراد عبدالوهاب الشوابكة – إنجيل برنابا (الشاهد والشهيد).

٦ – مواقع نصرة الإسلام على شبكة المعلومات.

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية

٢٦٨ / ٢٠١١ م

الرقم الدولي (ردمك) : ٦ - ٦٠ - ٩١ -٩٩٩٢١ - ٩٧٨

مطابع الدوحة الحديثة المحدودة
هاتف : ٤٤٨٠٣٤٠٤ / ٤٤٨٠٣٥٢٣ ـ فاكس : ٤٤٨٠١٤٥٧ / ٤٤٨٠٨٢٣٤
ص . ب : ١٤٥ الدوحة ـ قطر